الباب الثالث

شعراء الفرق الإسلامية

فى العصر الأموى

١ – الفصل الأول : شعراء الشيعة

٢ – الفصل الثانى : شعراء الخوارج

٣ – الفصل الثالث : شعراء الزبيريين

٤ – الفصل الرابع : شعراء المتكلمين

الفصل الأول

شعراء الشيعة

١

انتهينا فى درسنا لشعر الشيعة إلى أنه يتميز بكثرته . وبتمايز شعر كل شاعر عن شعر غيره ، وهذا يرتد بطبيعة الحال إلى كثرة شعرائهم . وإلى تمايز كل منهم عن الآخر فى شخصه وظروف حياته وبواعثها . على الرغم من اتفاقهم جميعاً على القول بالتشيع .

وترجع كثرة شعراء الشيعة إلى عوامل مختلفة أبرزها دوران عقيدة الشيعة حول شخصية علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيّه فى اعتقاد الشيعة وأقرب آل بيته إليه ، ثم حول ذريته فيما بعد من أحفاد النبى .

ولقد اعتنق كثير من المسلمين حب آل البيت من قبل أن يدينوا بعقيدة التشيع وكان بين هؤلاء كثير من الشعراء الذين أخذوا يشيدون بآل البيت ويفخرون بحبهم ويقررون حقهم دون غيرهم فى ولاية أمور المسلمين ، معبرين أثناء ذلك عن سخطهم الشديد على من كانوا سبباً فى تخطى علىّ إلى خلافة المسلمين منذ استخلاف أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ثم تعدوا ذلك إلى الجهر بالدعوة المباشرة إلى تفضيل علىّ على غيره من كبار الصحابة بعد مقتل عثمان ، وكان الشعراء الملتفون من حول علىّ فى هذه الفترة مجهولى القدر والذكر ولا نكاد نعرف من بينهم غير المفضّل المطلبى .

وما إن يتولى على الخلافة ويخوض معاركه ضد الشاغبين عليه فى معركة الجمل والمعارضين له فى صفين . والخارجين عليه فى النهروان حتى نجد من

حوله كوكبة مختلفة من الشعراء يجمعها الحب له والإيمان به وبحقه ويتخلف عنهم شعر كثير ترويه كتب التاريخ ومن أبرز شعرائه فى تلك الفترة قيس ابن عمرو المعروف بالنجاشى[١].

وهو كما يبدو من اسمه شاعر من نجران ويظهر أنه تعلق بعلىّ أيام كان باليمن لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصحبه وآزره بشعره فى وقائعه بعد ذلك ولاسيما فى صفين وكان لسانه فى مناقضة أهل الشام إذ رد على كعب بن جعيل نقيضته بقصيدة تعد من أروع الشعر السياسى . ولكنه كان يعاقر الشراب ويشتهر بحبه فنفاه لذلك على من الكوفة . ثم لما مات الحسن بن على رثاه بقصيدة حارة ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل فى الحج باليمن .

وإذا أخذنا نعدد أولئك الشعراء الذين التفوا حول حب آل البيت فى هذا الدور الذى نسميه دور الدعاء لوجدناهم كثرة لا يحدهم الحصر ، وقد مرت بنا أشعار لعبيد الله بن الحرّ ولسليمان بن قتّة ولعبد الله بن كثير السهمى وأخيه كثيّر . وكذلك أشعار لحرب بن المنذر بن الجارود ولابن أم كلاب والأشتر النخعى والحجّاج بن عربة الأنصارى ، وأيمن بن خريم وعبد الله بن خليفة الطائى وهند بنت حجر بن عدى وخالد النجارى ويزيد بن مفرغ الحميرى وعبدالله بن هشام السلولى ، ومسلم بن عقيل بن أبى طالب . وسليم بن سلام الحنفى وأبى ثميلة الآبار والحزين الكنانى وأبى الطفيل عامر بن واثلة الكنانى . وإبرهيم بن المهاجر البجلى وعبدالله بن السائب فضلا عمن لا ينقضى عددهم من الشعراء المجهولين الذين لم تعرف شخصياتهم .

وقد عدت على هؤلاء الشعراء الخلافات السياسية حتى لم نعد نعرف غير أسماء بعضهم من مثل عوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدى[٢] وكان من أولياء على وخلصائه الذين شهدوا معه يوم صفين ولم يحفظ لنا من شعره غير مرثية

---

(١) انظر فى ترجمته : الشعر والشعراء ص ١٨٧ — ١٩٠ ، الطبرى أحداث صفين ، واقعة صفين ، بروكلمان جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) انظر فى ترجمته معجم الشعراء ص ١٢٦ .

للحسين حث فيها على الثأر له من قاتليه ، وكانت من المكتمات فلم ترو فى عهد الأمويين إلا سرًّا ، وعلى الرغم من ذلك فإن بروكلمان يعده أشهر شعراء الشيعة[١] وربما كان ذلك لارتباطه فى أذهان الشيعة باضطهاد الأمويين لشعره ولسريان قصيدته هذه سرًّا إليهم وتداولهم إياها فيما بينهم .

ولعل أبرز الشعراء الذين التفوا حول علىّ وآل البيت على الإطلاق وبصورة ملحوظة أبو الأسود الدؤلى وهو شخصية مرموقة فى كثير من مناحيها ، ومعدودة فى طبقات من الناس هى فى كلها مقدمة ، مأثور عنها الفضل فى جميعها . فهو تابعى فقيه ، شاعر ومحدث وأمير ونحوى وزاهد وهو أولا وقبل كل شىء من وجوه الشيعة[٢] الذين صحبوا عليًّا وشهدوا معه الجمل وصفين ولأبى الأسود فى هاتين الوقعتين أشعار مختلفة فى معاتبة السيدة عائشة وطلحة والزبير وفى هجاء بنى أمية ، وقد استخدمه علىّ فولاه البصرة بعد ابن عباس وكان قد ولى الكتابة له من قبل واشترك فى النزاع الذى حدث بينه وبين علىّ وكان له دور كبير فى الحيلولة دون وقوع الفتنة بين بنى كنانة عندما تصدت لابن عباس وبين بنى هلال أخواله الذين استجار بهم فخفوا لحمايته وناشد أبو الأسود الناس بألا يسفكوا دماءهم بينهم ، وأن يخلوا بين ابن عباس وأمير المؤمنين فهو أولى منهم بابن عمه .

ويقترن ذكر أبى الأسود فى مجالات كثيرة بذكر علىّ بن طالب فهو فضلا عن تشيعه المخلص له ومؤازرته بيده وبلسانه تلميذه فى القضاء والفقه والعلم ، وهو أول من عمل كتابا فى النحو بعد علىّ بن أبى طالب الذى ألقى

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ١١ ص ١٠١ وما بعدها والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات بن سعد جـ ٧ ق ١ ص ٧٠ ، وأسد الغابة جـ ٣ ص٦٩ والإصابة جـ ٣ص ٣٠٤ ، والخزانة جـ١ ص ١٣٦ وروضات الجنان ٣٤١ وغاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤٥ ومعجم الأدباء جـ ١٢ ص ٣٤ وإنباه الرواة على إنباه النحاء جـ١ ص ١٣١ وتاريخ دمشق جـ ٧ ص١٠٤ ومعجم الشعراء ص ٦٧ ووفيات الأعيان جـ١ ص ٢٤١ وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى فى بغداد .

إله بتعليقات استعان بها فى عمله وهو أستاذ الحسن والحسين إلى غير ذلك من الروايات التى يظهر منها التحام أبى الأسود بعلىّ بن أبى طالب .

وبعد مقتل علىّ خطب أبو الأســـود الناس فى البصرة ونعى إليهم أمير المؤمنين وبكاه ثم دعاهم إلى بيعة الحسن فبايعت الشيعة كلها وتوقف ناس ممن كان يرى رأى العثمانية ولم يظهروا أنفسهم بذلك وهربوا إلى معاوية مع رسول كان قد دسه هذا إلى أبى الأسود ليعلمه أن الحسن قد أرسله فى الصلح ويدعوه إلى أخذ البيعة له فى البصرة ، وقد حمل إليه الرسول وعود معاوية وأمانيه ، ولكن أبا الأسود لم يستجب لهذه الدعوة واتهم معاوية بالتحريض على قتل الإمام فى قصيدة رثاه بها تعد من خير شعره . بل إن بعض الدارسين يذهب إلى أن أشعاره جميعا عدا هذه القصيدة لا قيمة لها[١]

ويبدو هذا الكلام مبالغاً فيه . ومتابعاً لرأى المستشرق الألمانى نولدكه فى شعر أبى الأسود ، فقد كان يتوقع أن يكون له أثر تاريخى مهم نظراً لعلاقاته بالشخصيات التاريخية ولشخصيته المشهورة ، ولكن شعره جاء — فى رأيه — ضعيفاً من ناحية المعنى ومن ناحية القيمة الشعرية وإن ارتفع أو كان عادياً فى قليل من المواضع[٢]

وأيضاً يأخذ عليه محقق ديوانه أن شعره كان بمعزل عن أحداث عصره فلم يشارك فى الانقلاب الفكرى فى حياة الدولة ولا فى الفتن والحروب وتفرق المسلمين وصراع علىّ ومعاوية والتحكيم وخروج الخوارج ومعركة النهروان وحرب الجمل وتنازل الحسن وهجرة عقيل إلى الشام ومقتل حجر بن عدى[٣] .

وعجيب أن يقول محقق الديوان هذا القول وهو يروى له أشعاراً كثيرة فى أغلب هذه الأحداث ، وحقاً فإن شعر أبى الأسود ليس شعراً فذاً نظراً لأنه لم يكن شاعراً وحسب وإنما كان ذا مواهب كثيرة ربما كان الشعر

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٨ .

(٢) مجلة الشركة الشرقية الألمانية جـ ١٨ ص ٢٣٢ — ٢٤٠ .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣٣ .

آخرها فغلبت شهرته فيها على شاعريته .

وعلى الرغم من ذلك فقد حظى شعره بكثير من الثناء والمدح ، فقد ذكر ابن النديم أن الأصمعى وأبا عمرو بن العلاء قد جمعا شعره[١] كما شرحه ابن جنى .

وهو من شعراء الشيعة المقدمين ويعده بعضهم من الفضلاء والفصحاء من الطبقة الأولى من شعراء الإسلام[٢] .

وقد رافق شعره كل الأحداث المهمة فى عصره ، ومر بنا شعره فى الجمل وغير الجمل ورثاؤه لعلى وللحسين ولمن قتل يوم كربلاء ، وله فى ذلك شعر كثير من مثل قوله :

يا ناعى الدين الذى ينعى التقى ... قم فانعه والبيت ذا الأستار
أبنى علىٍّ آل بيت محمد ... بالطف تقتلهم جفاة نزار
سبحان ذا العرش العلى مكانه ... أنى يكابره ذوو الأوزار[٣]

وكان يلاحى فى حب آل البيت من قبل أصهاره وجيرانه من بنى قشير العثمانيين وكانوا كثيراً مايؤذونه لتشيعه فيرجمونه بالحجارة بالليل ، ويحفظونه بسبّ على وانتقاصه فوله معهم قصص كثيرة تدور حول هذا ، وكذلك كان بنو هذيل يفعلون به ، وكان كثيراً مايعاتبهم من مثل قوله :

شتموا عليًّا ثم لم أزجرهم ... عنه فقلت مقالة المتردد
الله يعلم أن حبى صادق ... لبنى النبى وللإمام المهتدى[٤]

وقد خاصم فى علىّ وآله كل خصمائهم ، وكان كثير منهم من أصدقائه المقربين الذين يصفونه الود ، فقد كان أبو الجارود صديقاً حميما لأبى الأسود ثم ما لبث أن تنكر له لما انتقص عليًّا ، ولامه فى أبيات منها :

---

(١) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٢) تأسيس الشيعة ص ١٨٦ .
(٣) الديوان ص ١٨٢ .
(٤) الديوان ص ٢٤٠ .

لنا صاحب لا كليل اللسان فيصمت عنا ولا صارم
وشرّ الرجال على أهله وأصحابه الحمق العارم[١]

وتعرض أبو الأسود لجفاء صديقه عبد الله بن عامر لما كان عليه من التشيع [٢] فقال أبو الأسود :

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر من الود مابالت عليه الثعالب[٣]

وكان لأبي الأسود صديق يدعى نصر بن مالك ، ولكنه فارق أبا الأسود إلى الحرورية وأصيب فى النهروان فأسف عليه أبو الأسود وقال فى ذلك :

لعمرك ما نصر فلا تحسبنه من المسلمين بالقوى ولا الجلد
خرجت مع العوراء تلتمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
وقد كان فى الفرقان لو كنت باغيا لنفسك منه مايدل على الرشد[٤]

ولأبي الأسود شعر فى خروج خالد السدوسى الخارجى على عبيدالله ابن زياد لعهد يزيد بن معاوية وما كان من مقتله وانتقام الخوارج له[٥] ويذهب شعر كثير لأبي الأسود فى الهجوم على بنى أمية والتنديد بهم وبحكمهم وسفكهم لدماء الشيعة ظلماً وبغياً من مثل قوله :

صبغت أمية بالدماء أكفها وطوت أمية دوننا دنيانا[٦]

ويسجل شعره هجوماً على بنى زياد ويتمنى فيه زوال جبروتهم وسلطانهم الجائر فى مثل قوله :

أقول وزادنى غضباً وغيظاً أزال الله ملك بنى زياد[٧]

---

(١) الديوان ص ١٣٣ .
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ١١٥ .
(٣) الديوان ص ١٥٨ .
(٤) الديوان ص ١٩٣ .
(٥) الديوان ص ١٥٢ .
(٦) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٤١ .
(٧) الديوان ص ٢٤١ .

وكانت عداوته لزياد قديمة منذ أن كان أبو الأسود على ولاية البصرة وزياد على ديوانها وخراجها ، فقد أخذ زياد يقع فيه ويبغى عليه لدى علىّ ، وقد انبرى أبو الأسود يلومه فى أكثر من موضع فى شعره من مثل قوله :

نبئت أن زيادا ظل يشتمنى ... والقول يكتب عند الله والعمل
حتى م تسرقنى فى كل مجمعة ... عرضى وأنت إذا ماشئت منتقل
كل امرئ صائر يوماً لشيمته ... فى كل منزلة يبلى بها الرجل[1]

وظل زياد يحفو أبا الأسود بعد ذلك وبخاصة بعد أن ادعاه معاوية لأبيه وولاه العراق فكان أبو الأسود يأتيه فيسأله حوائجه ، فربما قضاها وربما منعها لما يعلمه من رأيه وهواه فى علىّ ، وما كان بينهما فى تلك الأيام التى كانا فيها عاملين له ، فكان أبو الأسود يترضاه ما استطاع ويقول فى ذلك :

رأيت زيادا صدّ عنى بوجهه ... ولم يك مردودا عن الخير سائله
ينفذ حاجات الرجال وحاجتى ... كداء الجوى فى جوفه لا يزايله[2]

وندد أبو الأسود بعبيد الله بن زياد كما ندد بأبيه وانتهز فرصة صلبه لمسلم ابن عقيل ولهانئ بن عروة فقال فى ذلك :

أقول وذاك من جزع ووجد ... أزال الله ملك بنى زياد
وأبعدهم كما غدروا وخانوا ... كما بعدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركائبهم إليهم ... إلى يوم القيامة والتناد
هم جدعوا الأنوف وكن شما ... بقتلهم الكريم أخا مراد
قتيل السوق يالك من قتيل ... به نضج من أحمد كالجساد
وأهل مكارم بُعُدوا وكانوا ... ذوى كرم رءوساً فى البلاد[3]

وتنسب لأبى الأسود أبيات قالها فى استرجاع حارثة بن بدر الغدانى ولاية سرق من كور الأهواز وهى تجرى على هذا النمط :

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ١٠٨ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

أحارِ بن بدر قد وليت ولاية ... فكن جرذا فيها تخون وتسرق
ولا تحقرن ياحار شيئاً وجدته ... فحظك من ملك العراقين سرّق
وباهِ تميما بالغنى أن للغـــنى ... لسانا به العىُّ الهيوبة ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب ... يقول بما تهوى وإما مصدق
يقولون أقوالا ولا يعلمونهـــا ... فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا
وكن حازماً فى اليوم إن الذى به ... يجىء غدا يوم على الناس مطبق
ولا تعجزن فالعجز أوطأ مركب ... وما كل من يدعو إلى الخير يرزق
إذا مادعاك القوم عدوك آكلا ... فكل حار أوجع لست ممن يحمق[1]

وواضحة سخرية أبى الأسود وتلاعبه به مما يمثل نقداً لاذعاً للولاة ، وسيرتهم فى أموال المسلمين .

ونحن لم نقف هذه الوقفة عند شعر أبى الأسود إلا لكى ندلل على أن شعره لم يكن بمعزل عن أحداث عصره ، وأنه قد شارك فيها بقسط غير قليل وربما ضاع له شعر كثير أو أضيع بالعمد ، فقد ذكر ابن أبى الحديد أن له مطارحات كثيرة فى الشعر مع على بن أبى طالب[2] ونص ابن النديم على أن ديوانه قد جمعه الأصمعى وأبو عمرو بن العلاء[3] وشرحه أبو الفتوح عثمان ابن جنى ، إلا أن محقق ديوانه على الرغم من ذلك يؤكد أنه لم يجد فيما راجع من كتب أن ابن جنى شرح ديوانه[4] .

ونحن لانستبعد أن يكون لتشيعه أثر كبير فى الجناية على شعره وإضاعته ، كما جنى عليه تشيعه فى التشنيع عليه بالبخل .

وقد ناقش محقق ديوانه الروايات التى تزعم بخله ، ونقضها وانتهى إلى أن نسبة هذه الصفة إليه ليست إلا أثرا من آثار الخلافات السياسية لتعصبه لعلىّ وتشيعه .

---

(١) الديوان ص ٢٤٤ .
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٩٧ .
(٣) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٤) مقدمة الديوان ص ٦٩ .

وأنها كلها روايات ملفقة تقصد إلى الاستهانة بقدرة من أعداء الشيعة الأمويين أو الزبيريين أو الخوارج [١].

ونحن نعتقد أن شعر أبي الأسود قد تأثر بما تأثر به شخصه نتيجة للخلافات السياسية ويؤكد ذلك تلك العناية الشديدة التي أولاها معاوية لشخص أبي الأسود. فكان دائماً يستقدمه ويعظم جوائزه دون أن ينجح في كسب مودته كما عظم أمره أيضاً على عمرو بن العاص الذي أخذ يغري به معاوية ويوغر عليه صدره، لأنه يذيع ذكر عليّ ويذيع بغض عدوه، وقد ناظره في شأن عليّ بحضرة معاوية وسأله عمرو: أيهم كان أحب إلى رسول الله؟ فقال أشدهم حبا لرسول الله وأوفاهم له بنفسه. فسأله: أيهم كان أعلم؟ قال: أقولهم للصواب، وأفصلهم للخطاب، فقال عمرو: فأيهم كان أشجع؟ فقال: أعظمهم بلاء، وأحسنهم غناء، وأصبرهم على اللقاء، فسأله: فأيهم كان أوثق عنده؟ فأجاب: من أوصى إليه فيما بعده فسأله: فأيهم كان للنبي صديقاً فقال: أولهم به تصديقاً. ولم يجد معاوية إلا أن يقول لعمرو: لاجزاك الله خيرا، هل تستطيع أن ترد مما قال شيئاً فاستأذن أبو الأسود معاوية في عمرو ووصمه بأنه هجا رسول الله وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صب عليه اللعنات بكل بيت لعنة فلا ينال فلاحاً ولا يدرك رباحاً أبدا[٢].

فليس بعيد إذن أن يكون خصماؤه السياسيون قد أضاعوا كثرة شعره لأنه كان من المتحققين بولاية علي ومحبته وصحبته ومحبة ولده، ويبدو عداء الأمويين له في قول الحجاج لابنه أبي حرب: أما والله لو أدركت أباك لقتلته لأنه كان شيعياً[٣].

وقد ظل أبو الأسود يتشيع حتى آخر أنفاسه إلى أن توفي سنة ٦٩ هـ.

ولم يكن أبو الأسود وحده من شعراء الشيعة الذي عدت عليه وعلى شعره

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٠٣.

(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ١٠٤.

الخلافات السياسية فقد شاركه كثيرون من شعراء الشيعة حتى صارت كثرتهم مجهولة لنا أو فى حكم المجهولة لأننا لا نعرف من أشعارهم غير إثارات قليلة لا تكفى لإلقاء بصيص من الضوء على حياتهم وما وقفنا عند أبى الأسود إلا أنه يعد أسعدهم حظًّا على الرغم من ذلك . وهو مثال صادق لأولئك الذين تعلقوا بحب آل البيت من شعراء العصر الأموى .

وهم جميعاً متشيعون ولكنهم لا يستغرقهم مذهب التشيع بحيث يطمس ذواتهم وإنما يبدو تمايزهم على الرغم من قلة شعرهم وكذلك يتمايز شعرهم ، وهو شعر يدور حول أغراض الشعر التقليدية من مديح آل البيت والإشادة بهم والتعبير عن حبهم ، وهجاء خصومهم ورثاء شهدائهم .

إلا أننا نقف عند شاعرين كبيرين من شعراء الشيعة نجد شعرهما يختلف عن شعر هؤلاء من حيث تصديه للتعبير عن النظرية الشيعية وأفكارها العقائدية فبينما تمثل نظرية الشيعة الكيسانية فى شعر كثيّر تمثل نظرية الزيدية فى شعر الكميت .

٢

وشاعر الكيسانية هو كثيّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة[1] وأبو جمعة ليس جده لأبيه وإنما لأمه ، وقد عرف به كما عرف بالانتساب إلى عزة بنت حُميل الضمرية التى اشتهر بالغزل فيها وترنم بها فى شعره ، ويكنى أبا صخر . وهو حجازى من خزاعة ولكنه انتسب إلى كنانة قريش وأنشد عبد الملك فى ذلك قوله :

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ١١ ص ٤٣ وما بعدها ، جـ ٨ ص ٢٥ وفى مواضع متفرقة ، وطبقات الشعراء ٤٥٧ ، والشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٨٠ ، والفرق بين الفرق ص ٢٨ ، والموشح ص ١٤٣ ، ومعجم الشعراء ٢٤٢ ، والخزانة جـ ٢ ص ٣٧٦ ومرآة الجنان جـ ١ ص ٢٠٢ والملل والنحل جـ ١ ص ٢٤١ ، ووفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٤٧ ، وحديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٣ ونشر بيرس ديوانه فى الجزائر .

أليس أبى بالصلت أم ليس إخوتى بكل هجان من بنى النضر أزهرا[١]

ولا تحدثنا الروايات بشىء مفصل عن نشأته، وأول ما نلقاه من خبره أنه شب فى حجر عم له صالح فلما بلغ الحلم أشفق عليه أن يسفه وكان غير جيد الرأى ولا حسن النظر فى عواقب الأمور ، فاشترى له عمه قطيعاً من الإبل وأنزله فرش مالك فكان به ، ثم ارتفع فنزل فرع المسور بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف من جبل جهينة الأصغر فضيقوا على كثير أوساءوا جواره فانتقل عنهم ، وقال فى ذلك أول أبيات له من الشعر وهى تجرى على هذا النمط :

أبت إبلى ماء الرداة وشفّها بنو العم يحمون النصيح المبردا
وما يمنعون الماء إلا ضنانة بأصلاب عسرى شوكها قد تخددا
فعادت فلم تجهد على فضل مائه رياحا ولاسقيا ابن طلق بن أسعدا[٢]

وتلقانا فى أول قوله الشعر رواية أخرى غريبة يرويها أبو الفرج عن الزبير عن عمه أن كثيراً قال : ما قلت الشعر حتى قولته ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : بينا أنا يوما نصف النهار أسير على بعير لى بالغميم أو بقاع حمدان إذا راكب قد دنا منى حتى صار إلى جنبى فتأملته فإذا هو من صفر وهو يجر نفسه فى الأرض جرًّا ، فقال لى : قل الشعر ، وألقاه على فقلت من أنت ، قال : أنا قرينك من الجن ، فقلت الشعر [٣].

وهذه الرواية عن كثير تنقلنا إلى ما عرف به من الحمق الذى لاحظه عليه عمه فى صباه والذى اشتهر به فيما بعد فى حياته كلها ، وما بعد هذه الحياة .

وفى اعتقادنا أن كثيراً كان يعانى من أحد الأمراض العصابية الناتجة عن انعدام التكامل فى شخصيته ، ونرجح أنه كان مصاباً بجنون العظمة وهو أحد مركبات النقص المتلوبة التى لازمته منذأن بدأ يعى الحياة نتيجة لما كان يشعر به من قصور وشذوذ فى صفاته الجسمانية وقد كان كثير دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحاً [٤] كما كان قميئاً شديد القصر حتى لقد ذكر

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٩ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٥ .
(٤) الأغانى جـ ١١ ص ٥٠ .

بعض الرواة أنه رآه يطوف بالكعبة فمن حدث أنه يزيد على ثلاثة أشبار كذب [١].

وكان كثير يلقى لذلك سخرية الناس ، ويذكر أبو الفرج أنه كان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان قال له : طأطئ رأسك لايصيبه السقف[٢] ولكنه كان يتطاول على سخرية الناس ولا يعبأ بهم، وإنما يظهر فى مواجهة سخريتهم كبراً وتيها شديدين ، ويذكر أبو الفرج أن رجلا سخر من دمامته وقصره فقال كثير :

إن أك قصيراً فى الرجال فإننى إذا حل أمر ساحتى لطويل[٣]

وكان ناس من أهل المدينة يلعبون به ويهزءون منه ، فيصدق كل مايلقون إليه ويسمع المزاح فيجيب إليه جاداً مقتنعاً ، وماذاك إلا مظهر من المظاهر الانفعالية التى تصحب الأمراض العصابية عادة والاضطرابات الهستيرية بوجه خاص، وهو ازدياد قابلية المريض للاستهواء والإيحاء سواء أكان هذا الإيحاء ذاتياً أو صادراً عن شخص آخر وكذلك ازدياد نشاط مخيلته ومقدرته على التعبيرات الادعائية التصنعية. وتسلط بعض الأفكار والأوهام على المريض نتيجة لانكماش المجال الشعورى أو تفككه [٤].

ويروى أبو الفرج روايات كثيرة يستفاد منها وجود كل هذه المظاهر فى سلوك كثير ومنها أن نفرا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضاً فسألهم : بم يتحدث الناس ؟ فقالوا : يتحدثون بأنك الدجال قال : أما إذا قلتم هذا فإنى لأجد فى عينى هذه ألماً منذ أيام[٥].

وكذلك كان بعض أهل المدينة يتحدثون وهو يسمع بأنه لا يلتفت من

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .
(٤) مبادئ علم النفس العام ص ١٢٨ .
(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣ .

تيهه فكان يستجيب لهذا الاستهواء ، حتى إذا أتاه الرجل من ورائه فأخذ رداءه لم يلتفت إليه من الكبر ومضى فى قميص(١) .

ولهذا فليس عجيباً أن تستهويه عقيدة الكيسانية بأوهامها وغلوها الغريب حتى تسلط على نفسه تسلطاً شديداً ، ووجد كثير فى مبادئها التخييلية من الرجعة والتناسخ ما أرضى نفسه المريضة ، وكان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية يعرف عنه هذا فكان يضع عليه الأرصاد ، فلايزال يؤتى بالخبر من خبره فيقول له إذا لقيه : كنت فى كذا وكنت فى كذا إلى أن جرى بينه وبين رجل كلام فأتى به أبو هاشم فأقبل به على أدراجه فقال أبو هاشم : كنت الساعة مع فلان ، فقلت له كذا وكذا وقال لك كذا وكذا فقال كثير : أشهد أنك رسول الله(٢) .

ويروى فى تشيعه أنه كان يوحى من صديق له يدعى خندق بن مرة الأسدى ، وكانا اجتمعا مرة بالموسم فتذاكرا التشيع فقال خندق : لو وجدت من يضمن لى عيالى بعدى لوقفت بالموسم وذكرت فضل آل محمد صلى الله عليه وسلم وظلم الناس لهم وغصبهم إياهم على حقهم ودعوت إليهم وتبرأت من أبى بكر وعمر فضمن كثير عياله . فقام ففعل ذلك فوثب الناس عليه فضربوه ورموه حتى قتلوه فرثاه كثير بعدة قصائد تدل على عمق الصلة التى كانت بينهما من مثل قوله :

تقول ابنة الضمرى مالك شاحباً ... ولونك مصفر وإن لم تخاق
فقلت لها : لاتعجبي من يمت له ... أخ كأبى بدر وجدك يشفق
كشفت أبا بدر إذا القوم أحجموا ... وعضت ملاقى أمرهم بالمخنق
وخصم — أبا بدر — ألدّ أبتّه ... على مثل طعم الحنظل المتفلق
جزى الله خيرا خندقاً من مكافئ ... وصاحب صدق ذى حفاظ ومصدق
أقام قناة الود بينى وبينه ... وفارقنى عن شيمة لم ترنق(٣)

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٣
(٢) الأغانى ج ٨ ص ٣٢
(٣) الأغانى ج ١١ ص ٤٣

ويذكر أبو الفرج عن أبي عبيدة أن خندقاً هذا هو الذى أدخل كثيراً فى مذهب الخشبية[١] ، كما يذكر أنه استنقذه من بطش الطفيل بن عامر بن واثملة ، وكان قد تهدده لما علم باصطدامه مع الخزين الكنانى إثر انتسابه إلى كنانة ، فكلمه فيه خندق واستوهبه إياه فوهبه له[٢] .

ولا تمضى حتى عام ٦٥ هـ وما كان فيها من ذيوع دعوة المختار الثقفى لابن الحنفية وتكوّن نظرية الكيسانية حوله حتى يصبح كثير أكبر بوق لهذه النظرية ، معتنقاً مبادئها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو وتطرف كفكرة التناسخ التى آمن بها إيماناً غريباً وكان يزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقوله تعالى : « فى أى صورة ما شاء ركبك » فيقول : ألا ترى أنه حوله من صورة إلى صورة[٣] .

ويذكر أبو الفرج أنه كان يدخل على عمة له فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها، فقال لها يوماً : لا والله ما تعرفينى ولا تكرمينى حق كرامتى ، فقالت : بلى والله إنى لأعرفك قال : فمن أنا فقالت : ابن فلان وابن فلانة ، وجعلت تمدح أباه وأمه فقال : قد عرفت أنك لا تعرفينى قالت : فمن أنت إذن ؟ قال : أنا يونس بن متى[٤] .

وكما كان يؤمن بالتناسخ هذا الإيمان الغريب فى نفسه كان يعتقد أيضاً أن قبس النبوة لايزال ينتقل فى على وأبنائه فكان يدعو أبناء الحسن بن الحسن بالأنبياء الصغار فإذا أخذ عطاءه وهب لهم الدراهم فيقول له محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان وهو أخوهم لأمهم : هب لى ياعم فيقول : لا لست من الشجرة[٥] .

وأيضاً اعتقد اعتقاداً جازماً بأن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وكان

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٤٥
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٥ ، جـ ١١ ص ٤٦
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢
(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣
(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣ .

يتباهى بصلته به و بسؤاله عنه من مثل قوله فى ذلك :

أقر الله عينى إذ دعانى أمين الله يلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى على خيراً ويسأل عن بنى وكيف حالى
وكيف ذكرت حال أبى خبيب وزلة فعله عند السؤال
هو المهدى خبرناه كعب أخو الأحبار فى الحقب الخوالى[١]

وقد سئل كثير : ألقى كعباً ؟ فقال : لا ، فقيل له : فلم قلت خبرناه كعب؟ فقال : بالتوهم[٢] ونراه يمتلئ حقداً على ابن الزبير حين رآه يعنف بإمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة نتيجة لدعوة المختار له فى الكوفة وإخراجه واليه منها .

وسجل فى قصيدته على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم حتى الحمام فلا يحل صيده ، وعلى الرغم من ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى المصطفى وابن عمه الذى يأخذ بأيدى العناة ويتقى الله حق تقواه[٣] .

وكان كثير يؤمن بالرجعة فيزعم أن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه غائب برضوى لا يلبث أن يرجع فيملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جوراً وقد سجل ذلك فى شعره من مثل قوله :

وسبط لاتراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لايرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء[٤]

وينجح جيش المختار فى افتكاك ابن الحنفية من سجن ابن الزبير ويخرج ابن الحنفية عن جواره فيلحق بعبد الملك فى دمشق وكثير فى ركابه وينال الإمام وشاعره رعاية عبد الملك ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣١
(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣١

حتى أصبح من مدّاحه وأخذ يتقرب إليه فانتسب كنانيًّا وأنشد عبد الملك قصيدة فى ذلك رأى عبد الملك أن يذيعها من فوق منبرى الكوفة والبصرة ليترضى بذلك اليمنية ، وحمله وكتب به إلى العراق فى أمره .

وقد لقى كثير بسبب هذا الانتساب كثيراً من العنت والهجاء والمنافرة من بعض شعراء خزاعة الذين تابوا أن يكون نسبهم لكنانة من مثل قول سراقة ابن مرداس البارقى ساخراً من كثير ومتهماً إياه بأنه مأجور فى انتسابه :

لعمرى لقد جاء العراق كثير ... بأحدوثة من وحيه المتكذب
أيزعم أنى من كنـــانة أولى ... ومالى من أم هناك ولا أب
فإن كنت حرًّا أو تخاف معرة ... فخذما أخذت من أميرك واذهب[1]

وهجاه الأحوص بمثل هذا فنعى عليه تضييعه نسبه فلا هو أبقى على خزاعة ولا هو لحق بكنانة فأصبح كالسقاء المعلق ، أو كالذى أراق فضلة مائه تعلقاً بسراب رآه ، يقول :

فإنك لا عمراً أباك حفظتـــه ... ولا النضر إن ضيعت شيخك تلحق
ولم تدرك القوم الذين طلبتهـــم ... فكنت كما كان السقاء المعلق
وأصبحت كالمهريق فضلة مائه ... لبادى سراب بالملا يترقـــرق[2]

وكما أغضب كثير بنى كنانة فقد أغضب الخزاعيين وعامة أهل اليمن الذين أساءوا استقباله فى العراق وتكاثروا عليه يتلومونه ويتندرون به ويخوفونه القتل حتى اضطروه إلى اللجوء إلى والى الكوفة فطيره على البريد[3] .

ولم يقتصر الأمر على كنانة العراق فحسب إذا تصدى له بمكة أيضاً الحزين الكنانى فهجاه هجاء مريراً واستغل فى هجائه انتسابه لكنانة فشمخ عليه الحزين ووصمه بالذلة ، والعبودية والولاء لكنانة ، وإن خزاعة ذنب وكنانة القوادم

---

(١) الأغانى جـ ٨ / ص ٢٩ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠

وذلك فى أبيات لا نستطيع أن نذكرها برمتها لإقذاعها . وإنما نذكر منها قوله :

وما أنتم منا ولكنكم لنا عبيد العصا ما ابتل فى البحر عائم[١]

وحاول كثير أن يلكز الحزين فلم يستطع لقصره ولطول الحزين الذى احتواه بين يديه كالكرة وضرب به الأرض، وسمع الطفيل بن عامر بن واثلة بما أتاه كثير مع الحزين فأقسم ليقتلنه لولا أن افتداه منه خندق الأسدى كما مر .

وقد أسبغ عبد الملك على كثير فضائل عطاياه واستوهبه كثير أرضاً يقال لها غرب كان ينزلها بولده فيصيب من رطبها وثمرها شراء مرة وطعمة مرة أخرى فأذن له أن يعمرها ولكن الناس مالبثوا أن تلاوموه وهو شاعر الخليفة وله عنده منزلة أن يستوهبه إياها ، فأنشده كثير قوله :

جزتك الجوازى عن صديقك نصرة وأدناك ربى فى الرفيق المقرب
فإنك لا يعطى عليك ظلامة عدو فلا تنأى عن المتقرب
وإنك ما تمنع فإنك مانع بحق وما أعطيت لم تتعقب

فقال له : أترغب غربا ؟ قال : نعم ، قال عبد الملك : اكتبوها له ففعلوا[٢] فأخذ كثير ينافس شعراء البلاط الأموى فى التقرب من عبد الملك مستهيناً بمدائحهم التى لا تستحق ما يبذله لهم بنو أمية من عطايا ، فقد سأل كثير ذات مرة : فى أى شعر أعطى هؤلاء الأحوص عشرة آلاف دينار ؟ فلما أخبروه أن ذلك فى قوله :

وما كان مالى طارفاً من تجارة وما كان ميراثاً من المال متلدا
ولكن عطايا من إمام مبارك ملا الأرض معروفاً وجوداً وسؤددا

استخف بقوله وقال : ألا قال كما قلت :

دع عنك سلمى إذ فات مطلبها واذكر خليلك فى بنى الحكم

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨ .

ما أعطياني ولا سألتهمـــا إلا وإني لحاجزي كرمي
إني متى لا يكن نوالهمـــا عندي بما قد فعلت أحتشم
مبدي الرضا عنهما ومنصرف عن بعض مالو فعلت لم ألم
لا أنزر النائل الخليل إذا ما اعتل نزر الظئور لم ترم[١]

وكذلك أخذ كثير يثير على عبدالله بن الزبير ويحرض عبد الملك على حربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همـــه حصان عليها عقد درّيزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقـــه بكت فبكى مما شجاها قطينها[٢]

وظل يمدح عبد الملك ، وارتحل إلى مصر فمدح عبد العزيز أخاه ، وظن بعض الدارسين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق فهو يمدحهم تملقاً ليأخذ جوائزهم وهو كاذب أحسن الكذب فى هذا المدح والتملق[٣] .

وفى الحقيقة أنه لم يكن منافقاً ، وإنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه ، وإذا كان إمامه يتولى الأمويين تقية فكثير كذلك بمدحهم تقية وأخباره مع عبد الملك تقطع بأنه كان يعرف تشيعه وإصراره عليه . فيذكر أبوالفرج أنه كان غالياً فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك لجلالته فى أعينهم ولطف محله فى أنفسهم وعندهم[٤] .

وليس هذا فحسب ما كان يعلمه عنه بنو مروان فقد كانوا يعلمون أنه كان أحمق وأنه كان من أتية الناس وأذهبهم بنفسه على كل أحد[٥] ولهذا ولأنه كان حاقداً على أعداء إمامه وأعداء الأمويين من بنى الزبير فإنهم لم يعبأوا

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤
(٣) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٦ .
(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦
(٥) المرجع نفسه

بتشيع رجل أحمق مثله مادام ينيلهم مدحه وينال أعداؤهم هجاءه .

ولم يكن عبد الملك أو غيره جاهلا بقدر مدائحه التى أجمع النقاد على الثناء عليها فابن سلام معجب بمذهبه فى المديح إلى أقصى حد وكذلك ابن أبى حفصة معجب باستقصائه للمدح ، وهو مقدم عند كثير من النقاد على جرير والفرزدق والراعى وعامة الشعراء الإسلاميين إذ لم يدرك أحد فى مديح الملوك ما أدرك وما قصد القصيد ولا نعت الملوك مثله شاعر[١] .

وكان كثير يسأل عبد الملك كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين فيجيبه : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر ، كما كان يخرج لمؤدب ولده شعر كثير ليروّيهم إياه[٢] .

وكان بنو مروان يعلمون تشيعه تمام العلم إذن ، وفى اعتقادنا أنهم كانوا يعتدون بحمقه كما كانوا يعتدون بمدائحه فلا يجدون فى تشيعه ضرراً ولا يرتابون فيه ولا يعتقدون أن خطراً ما يمكن أن ينجم عن عقيدته إلى حد أن عبد الملك كان إذا سأله عن شىء فأخبره به استحلفه بحق على بن أبى طالب ، وكان كثير يتخابث فيزعم له أنه لو سأله بحقه هو يصدقه ولكن عبد الملك كان لا يجوز عليه تخابثه ويقول له : لا أسألك إلا بحق أبى تراب[٣] .

وهكذا يبدو أن كثيراً لم يكن يتملق عبد الملك كما لم يكن منافقاً فى عقيدته فهو فيما بينه وبين نفسه وفيما بين نفسه وبين الله كان متشيعاً غالياً فى تشيعه مؤمناً بمبادئ الكيسانية إيماناً متطرفاً ولكنه فيما بينه وبين الناس كان شاعر بنى مروان الذى يمدحهم ويغلو فى مديحهم ويعتز بولائه لهم ، ولكنه ولاء تجيزه عقيدته التى تؤمن بالتقية وتبيحها ولا تجد فيها حرجاً من أجل الحفاظ على النفس والمصالح ولكن إذا تجاوز هذا الولاء حدوده إلى الدرجة التى تتعارض مع أهداف التقية فلا مناص إذن من النكوص .

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣

وقد حدث هذا بالفعل عندما خرج كثير فى جند عبد الملك للقاء مصعب ابن الزبير ونظر عبد الملك إلى كثير فوجده يسير مطرقاً فى ناحية من العسكر فدعابه وسأله عما أسكته وألقى عليه بثه وتكهن عبد الملك بما يمكن أن يكون السبب فى هذا . واستحلفه بحق على بن أبى طالب أن يصدقه إذا كان تكهنه حقيقة فحلف له كثير فأخبره عبد الملك بما يعتقد أنه يدور فى خلده من التردد فى المضى مع الجند والرغبة فى اعتزال الحرب قال عبد الملك : تقول : رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه . القاتل والمقتول فى النار فما معنى سيرى مع أحدهما إلى الآخر ، ولا آمن سهماً يصيبنى فيقتلنى فأكون معهما فقال كثير : والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت فأمره عبد الملك بأن يرجع من قريب وأمر له بجائزة[1].

على هذه الصورة كانت علاقة كثير بعبد الملك علاقة المصلحة المشتركة التى يجدها كل منهما عند الآخر والتى لا تضر بإيمان كثير بعقيدته التى تبيح مثل هذه العلاقة كما لا تضر عبد الملك فضلا عن أنها تفيده مدحاً وتفيد سياسته وحكمه ثناء وتقديراً .

ولكن كثيراً لم يكن ليسمح لعبد الملك أن يفيد منه مثل ما يفيد هو منه فقد تجلى إخلاصه لعقيدته فى لون من التقية الفنية ابتكره وأتاح له هذا الضرب من التخابث أن يعبث بعبد الملك وأن يحمل مديحه له كثيراً من السموم من مثل قوله مصوراً عبد الملك حية ماتزال تلدغ :

يقلب عينى حية بمحـــــاره إذا أمكنته شدة ليقيلهــــا

وكذلك نراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء المغتصبين الذين لا تقر غالبية للشيعة خلافتهم فيجعله سابع الخلفاء فى سلسلة الخلفاء الظالمين بعد أن يخرج من بينهم على بن أبى طالب إذ أنه الخليفة الشرعى الوحيد بينهم فيقول :

وكنت المعلى إذ أجيلت قداحهم وجال المنيح وسطها يتغلغل

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤

والمعلى هو سابع قداح الميسر وأعلاها نصيباً ، بينما المنيح لا نصيب له ، وهكذا يريد كثير أن يموه على عبد الملك ، وظاهر هذا القول أنه أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، ولكن باطنه يعنى أنه السابع فى سلسلة من الخلفاء الذين اغتصبوا الخلافة ولا تعترف الشيعة بخلافتهم وهم أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ومروان ، ومن ثم يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء الغاصبين القدح السابع بين القداح أو الخليفة السابع الزائف الذى لا تعترف به الشيعة ولا بمن على شاكلته .

ولماذا نعنى أنفسنا فى استكناه معمياته التى يضمنها هذا العبث الطريف بعبدالملك وأسرته وهو يصرح بهذا فيسقط علياً ويجعل معاوية رابع الخلفاء فى قوله :

وكان الخلائف بعد الرسو ل لله كلهم تابعا
شهيدان من بعد صديقهم وكان ابن حرب لهم رابعا
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعا

وظاهر هذا القول أن الخلفاء الشرعيين هم الصديق والشهيدان من بعده عمر وعثمان ورابعهم معاوية ! وخامسهم يزيد ابنه وسادسهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك سابع هؤلاء الخلفاء ، وواضح أنه بإسقاطه علياً من بينهم إنما يريد أن يظهر زيفهم جميعاً .

وعلى الرغم من محاولة التقرب لعبد الملك بانتسابه فى كنانة ومعاناته من خزاعة واليمن ومن شعرائهم الذين سلقوه بألسنة حداد فإنه لم يتخل عن عصبيته اليمنية كما لم يتخل عن الشيعة وقد ظل يستشعر ولاءه لليمنية وللشيعة بقوة حتى لقد بكى حتى انتضحت عيناه حينما بلغه مقتل يزيد بن المهلب وهزيمته يوم العقر فقال : ما أجل الخطب ، ضحى آل أبى سفيان بالدمن يوم الطف وضحى بنو مروان بالكرم يوم العقر .. ولما بلغ ذلك يزيد بن عبد الملك دعا به فلما دخل عليه قال : عليك لعنة الله أترابية وعصبية وجعل يضحك منه [1]

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤

ولعل كثيراً لم يصف أحداً من الأمويين وده كما أصفاه عمر بن العزيز وهو يرجع إلى موقفه من آل البيت، فقد بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتاً من سبهم على المنابر ورد إلى آل البيت ميراثهم فى فدك ، وتروى الروايات الكثيرة عن حبه الشديد لآل البيت وأنه كان يقول ليس أحد من بنى هاشم إلا وله شفاعة وإنى أرجو أن أكون فى شفاعة هذا ، ويشير إلى عبد الله ابن الحسن ، كما كان يحلو له كثيراً أن يقول إنه مولى علىّ وكان يزيد من يتولى علياً فى العطاء ويفرض له ويطلب إلى العلويين أن يرفعوا إليه بحاجاتهم رأساً لأنه يستحى أن يراهم على بابه[1].

وقد وفد عليه كثير فيمن وفد من الشعراء من أصحاب السابقة عند أبيه كنصيب والأحوص وكان كل واحد منهم يدل عليه بإخائه حتى لا يشك كل واحد منهم وهو ينظر فى عطفيه أنه شريك الخليفة فى الخلافة ، وتلقاهم مسلمة ابن عبد الملك فأكرم ضيافتهم ثم تقدم إليهم بأن عمر لا يعطى الشعراء شيئاً. ومادام ذو دين من بنى مروان قد ولى الخلافة فقد بقى من ذوى دنياهم من يقضى حوائجهم ، ولم ينجحوا فى الدخول على عمر أربعة أشهر يترددون خلالها على بابه ومسلمة يستأذن لهم فلا يؤذن .

فاحتال كثير للأمر وقصد المسجد يوم الجمعة ليحفظ شيئاً من كلامه يضمنه شعره فسمعه يقول فى خطبة له : « لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه فعمل طلباً لهذا وخوفاً من هذا ولا يطولن عليكم الأمر فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة فأما من لا يداوى جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يطمئن بالدنيا أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسى عنه فتخسر صفقتى وتبدو عيلتى وتظهر مسكنتى يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق » فارتج المسجد بالبكاء ، وبكى عمر حتى بل ثوبه وظن الناس أنه قاض نحبه ، وبلغ كثير إلى نصيب والأحوص

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٥٠ .

فطلب إليهما أن يجددا لعمر، من الشعر غير ما أعدا وطلبوا الإذن عليه يوم جمعة بعد ما أذن للعامة فدخلوا عليه فسلموا عليه بالخلافة وتقدم كثير فحدثه فى جفائه إياهم ولكن عمر قال يا كثير : أما سمعت إلى قول الله عز وجل : «إنما الصدقات للفقراء .. الآية » أفمن هؤلاء أنت ؟ فقال كثير متضاحكاً إنه ابن سبيل ومنقطع به واستأذن فى الإنشاد ، فقال عمر : قل ولا تقل إلا حقاً فإن الله سائلك فقال كثير :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف … بذياً ولم تتبع مقالة مجـــرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى … فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه … من الأود الباقى ثقاف المقوم
لقد لبست لبس الملوك ببابها … وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة … وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما … سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها فى ممنّع … ومن بحرها فى مزبد الموج مفعم
ومازلت سباقاً إلى كل غاية … صعدت بها أعلى البناء المقدم
فلما أراك الملك عفواً ولم يكن … لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقا … وآثرت ما يبقى برأى مصمم
فأضررت بالفانى وشمرت للذى … أمامك فى يوم من الهول مظلم
ومالك إن كنت الخليفة مانع … سوى الله من مال رغيب ولا دم
سمالك هم فى الفؤاد مؤرق … صعدت به أعلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها … مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين : ظلمتنى … بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ ظالم له … ولا الفك منه ظالما ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون تقسموا … لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب … مغذ مطيف بالمقام وزمـــزم
فأربح بها من صفقة لمبايع … وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم (١)

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٤٨ .

فهو يفتتح مدحته هذه بذكر مكرمة عمر فى إكرام آل البيت ومنع عماله من سبهم وعن تصديق قالة السوء فيهم ، فهو رجل مصدق لا يقول إلا ما يفعل حتى أصبح المسلمون جميعاً راضين ، وهو رجل زهد الدنيا فلا يؤمل فيها غير ما يقيم الأود على الرغم من مظاهر الدنيا الخادعة التى تتبدى له فى إغراء وفتون ، ولكنه ينفر منها مشمئزًّا إذ ليست هدفا من أهدافه وإنما هدفه أسمى من ذلك بكثير ، فهو سباق إلى غايات لا يدركها الفناء والبلى ، وقد يسر له ذلك همة قعساء لاتنى تدفعه إلى كل ما هو سام ورفيع ، وقد أتت هذه السياسة المرتكزة على التقوى ثمارها الطيبة فعم العدل والأمن وانقطعت نداءات المظلومين فلم يعد يسمع أحد من العرب أو من الموالى ينادى برفع ظلم ، ولا بكف جور أو بسفك دم ، فالمسلمون يتمنون لهذا لو استطاعوا فداءه بأعمارهم جميعاً ليطول عمره ولتمتد حياته مادام البيت والحجيج .

وهى مدحة تختلف عن مدائح كثير للأمويين بل إنها لتختلف عن كل ما مدح به الأمويين إذ يسلك فيها كثير مسلكاً مختلفاً فما هى إلا ترجمة شعرية لما كان عمر يعنى به ويسلكه فى حياته من التقوى والزهد ، بل إن أفكارها تكاد تكون مستمدة من كلماته التى سمعها عنه كثير فى خطبه .

ولم ينل كثير عن هذه المدحة غير مائة وخمسين درهماً ، ولم يعمر كثير بعد ذلك طويلا فقد توفى فى آخر عهد يزيد بن عبد الملك ، ولا نعود نسمع عنه شيئاً غير غلوه فى تشيعه حتى آخر أنفاسه ، فقد بكى عليه بعض أهله وهو يحتضر ، ولكنه قال له : لاتبك فكأنك بى بعد أربعين ليلة تسمع خشفة نعلى من تلك الشعبة راجعاً إليكم .

وقد حظى شعر كثير بعناية قدامى النقاد عناية فائقة ، فعدوه من فحول الشعراء وعده ابن سلام من الطبقة الأولى فيهم ، فقرن به جريراً والفرزدق والأخطل والراعى . وقد سبق أن تحدثنا عن إعجاب النقاد بمديحه والإشادة به ، فلم يقصد القصيد ولم يمدح الملوك أحد كما فعل كثير ، ولم يدرك أحد فى مديحهم ما أدرك ، ولم يكتف النقاد بهذا وإنما قدموه أيضاً على فحول الشعراء ، فهو مقدم على ابن

أبى ربيعة ، وعلى جميل الذى كان راوية له وعلى ابن ذريح والأحوص والعرجى وهو أشعر من جرير والفرزدق والراعى وعامة الشعراء ، بل هو أشعر الناس أيضاً[١].

وكان أبو عبيدة يروى شعره بثلاثين ديناراً ، كما كان عبد الملك يروّى شعره أولاده وقد ضاع شعر كثير ،وما بقى منه بين أيدينا لا يعدو أبياتاً ومقطعات قليلة لا تتيح لنا التأكد من صدق أحكام النقاد القدامى عليه ، إذ يذكر أن أبا عبيدة كان يقول : من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره[٢]. فإننا لا نشك فى أن ابن سلام وضعه فى الطبقة الأولى من فحول الشعراء الإسلاميين إلا لأنه كان شاعرا مجيداً ، وتذكر الروايات أنه كانت تروى لكثير ثلاثون قصيدة لو رقى بها مجنون لأفاق[٣].

ويذهب بعض الدارسين المحدثين إلى أن شهرة كثير لم تأته من حيث كونه شاعراً غزلا وإنما نتيجة لكونه شاعراً سياسيًّا ، فقد خلت حياته وشخصيته من المؤثرات التى كونت الغزليين ، فهو صغير النفس ردىء الطبع شديد الحمق والغفلة ، بل إن كل شىء فى حياته يدل على أنه لم يكن غزلا بطبعه ، ولم يكن ماهراً ولا موفقاً فى تكلف الغزل ، فلم يكن صافى الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوى العاطفة ولا ذكى الفؤاد ، وإنما كان بريئاً من هذه الخصال ، كما كان دميما قبيحاً بشع المنظر مضحكاً لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يتحدث إليه أيضا[٤].

وفى هذا ظلم كثير لكثير ، فهو وإن أكسبه شعره فى التشيع شهرة بعيدة فقد اشتهر شعره الغزلى كذلك شهرة قرنته بالغزليين ، وتقدمت به عليهم جميعاً وليس بصحيح أنه لم يكن له من المؤثرات ما كان للغزليين ، فليس عدلا أن نحكم على شاعر بتأخره فى الغزل لأنه لم يكن من أصحاب الأحلام السياسية فى الرفعة

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٤) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٣ .

والسلطان : إلا بمقدار ما يقضى به تخلفه فى هذا الضرب من الفن أو أنه لم يكن حسن الصورة أو جميل السمت معجباً لمن يراه أو يسمعه .

وليس صحيحاً أيضاً أن كثيراً كان بريئاً من صفاء الطبع ورقة الحس ودقة الشعور وقوة العاطفة ، بل إنه كان على النقيض من ذلك على خط مستقيم فقد أذكى ما كان يعانيه من اضطراب نفسى أحاسيسه ومشاعره وعواطفه كما أذكى قصوره الجسمى كوامن خياله وحفزه على التعبير عن عواطفه تعبيراً عاطفياً معجباً كنوع من التعويض على أقل تقدير ، ونحن لا نحفل بقول أبى عبيدة أو غيره من القائلين بأن كثيراً كان يكذب فى شعره طالما كان شعره نفسه يقول لنا غير ذلك ، فأين التكلف والكذب فى قوله :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت
فليت قلوصى عندعزة قيدت ... بحبل ضعيف بان منها فضلت
وأصبح فى القوم المقيمين رحلها ... وكان لهـا باغ سـواى فبلت
فقلت لها ياعزّ كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
اسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة ... لدينـا ولا مقليـة إن تقلت
هنيئاً مريئاً غير ، داء مخامـر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ... رأيت المنايا شرعا قد أظلت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوحاً ، فما تلقاك إلا بخيلـة ... فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت
أصاب الردى من كان يهوى لك الردى ... وجن اللواتى قبل عزة جنت[1]

فهل هذه الأبيات على قلتها بريئة من رقة الحس ودقة الشعور وقوة العاطفة ؟ وبقدر ما كان شعر كثير الغزلى متميزاً لم يكن شعره السياسى كذلك فقد اختلط عند الرواة بشعر السيد الحميرى الشاعر الكيسانى الذى عاصر الدولتين الأموية والعباسية .

وكان لاتفاق كثير والسيد فى أمور كثيرة ما يبرر انخداع الرواة فى نسبة

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٧ — ٣٨ .

شعر كل منهما للآخر ، فهما يشتركان فى التشيع كما يشتركان فى ذات الاضطراب النفسى الذى وسمهما بالحمق والغفلة ، وأيضاً يشتركان فى مهادنة الحكومة المعاصرة واتخاذ التقية فى مدح القائمين عليها ، ولكن الفارق الزمنى بين الشاعرين كفيل بأن يحسم أمر الأشعار المختلطة بينهما .

وعلى سبيل المثال فإن قصيدة مثل تلك الميمية المنسوبة إلى السيد والتى مطلعها :

ألا قل للوصى فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما[١]

وفيها يقول :

أضر بمعشر والوك منـــا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرًّا مغيبك عنهم سبعين عاما

ينسبها بعض الباحثين المحدثين إلى كثير[٢].

فإذا كان ابن الحنفية قد توفى عام ٨١ هـ وأنه تغيب سبعين عاماً يوم نظمت هذه الأبيات فإنه يلزم أن يكون قائلها قد شهد عام ١٥١ هـ ، ولما كان كثير قد توفى سنة ١٠٥ هـ فمن غير المعقول أن يكون هو قائل تلك الأبيات ، وإنما يكون قائلها السيد الحميرى الذى توفى سنة ١٧٣ هـ .

وقد لا يتيسر معالجة الأشعار كلها ، بهذا الأسلوب لافتقارها إلى القرائن التاريخية وحينئذ يمكننا اللجوء إلى المنهج الفنى فى التعرف على شعر كثير لأنه يتميز عندنا بمميزات واضحة تميزه عن شعر السيد بالذات الذى عرفه الرواة بسهولته التى تكاد تصل به إلى سطحية تفتقد معنى الشعر[٣] .

والذى لاشك فيه أن قدرة كثير على التصوير أبرع من قدرة السيد الذى يجنح دائماً إلى التقريرية فى أشعاره جميعاً ، وكذلك فإن أسلوب كثير فى

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠ .
(٢) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٧ .
(٣) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ .

التعبير أجود لفظاً وأرصن لغة وأصدق لهجة وأرق عاطفة وأدق خيالا من أسلوب السيد ، كما أن شعره يتميز بميزة أخرى لا نجدها تماماً فى شعر السيد وهى حلاوة الجرس وتوافر القيم الموسيقية فى شعره وكأن أصواتاً كثيرة وضعت فى شعره حتى ليقول بعض الرواة ماضر من يروى شعر كثير أن لا تكون عنده مغنيتان مطربتان[١]..

٣

أما النموذج الآخر الذى نقف عنده من شعراء الشيعة ، فهو الكميت بن زيد الأسدى[٢] وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار ، وقد اشتهر معه فى هذا العصر بذلك الاسم شاعران آخران من قبيلته هما الكميت بن ثعلبة الشاعر المخضرم وحفيد له يسمى الكميت بن معروف .

وقد ولد بالكوفة عام ٦٠ هـ وهى السنة التى قتل فيها الحسين ، وكان لنشأته فى الكوفة — معقل الشيعة والثورة والشعر والدراسات الدينية واللغوية والكلامية — أثر كبير فى تكوينه الفكرى .

فقد كانت الكوفة فى هذه الحقبة التى شب فيها الكميت تموج بتيارات فكرية عديدة فى منافسة رائعة مع البصرة فى جميع شعب الثقافة المعروفة آنذاك وقد أخذ الكميت يختلف إلى دروس العلماء فتلقن عنهم الفقه والحديث وأيام العرب وأنسابها ، ولم يلبث أن تحول معلماً يعلم الصبية فى مسجد الكوفة[٣]

وتنعقد بينه وبين الطرماح الذى يعمل بنفس المهنة أواصر المودة والصفاء

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ١٥ ص ١٠٨ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٢ ، والموشح ص ١٩١ وطبقات الشعراء ص ٢٦٨ وخزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩ ، والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة ، وأمالى المرتضى جـ ١ ص ٦٦ ، ٩٩ ، جـ ٢ ص ٨٠ ومعجم الشعراء ص ٢٣٨ والتطور والتجديد ص ٢٣٠ والعصر الإسلامى ص ٣١٥ ، وديوان الهاشميات .

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٠٩

على الرغم من الاختلاف الواضح فى شخصيتهما فبينما تبدو شخصية الطرماح غالية فى الزهو والاعتداد حتى ليرفض أن ينشد مخلدا المهلبى قائماً مستنكراً أن يقوم للشعر فيحط الشعر من مقامه ، نجد الكميت لا يتحرج من ذلك ناعتاً نفسه بأنه ألطف حيلة من الطرماح ، وإن كان الطرماح أبعد منه همة ، ولكنهما وإن اختلفا فى شخصيتهما ونسبهما ومذهبهما وموطنهما فإنهما قد اتفقا على بغض العامة[١] كما اتفقا فى المهنة والدراية البعيدة باللغة وبمعرفة الغريب منها بوجه خاص .

وتتحدث الروايات عن سعة دراية الكميت بأشعار العرب وأيامها وأنسابها وأنه قد خالف حماداً الراوية فى بعض ذلك يوماً فى مسجد الكوفة وتنازعا فادعى حماد أنه أدرى منه وأكثر إحاطة ، وغضب الكميت فتحدى حماداً أن يخبره لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان يروى ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو ، يروى ؟ ولما عجز حماد عن الإجابة أخذ الكميت يذكر رجلا من كل صنف ، ويسأل حماداً ما إذا كان يعرفه ؟ فإذا لم يعرفه أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى أضجر من شهدهما[٢].

وروى أنه كانت للكميت جدتان معمرتان تقصان عليه أخبار العرب فى الجاهلية وتصفان له البادية وأمورها ، فإذا شك فى شعر أوخبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه[٣] ويذكر أبو الفرج أن الكميت والطرماح كان يصيران إلى رؤبة فيسألانه عن الغريب فيخبرهما به ثم يراه بعد فى أشعارهما[٤].

ويبدو من الروايات أن الكميت كان ذا شغف بعيد بكل لفظ غريب ، وأنه كان يدل بثقافته اللغوية على الرواة والدارسين ، فقد سأل حماداً عن معنى بيتين من الشعر فلم يعرفهما وأجّله أياما ليأتى بتفسيرهما فعجز عن ذلك[٥].

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠ .
(٣) الإغانى جـ ١٥ ص ١٢٠ .
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ٤٩ .
(٥) الأغانى جـ ٥ ص ١٠٩ .

ولم تكن ثقافته لتقف به عند أشعار العرب وأيامها وأنسابها فحسب وإنما كان فقيهاً محدثاً روى الحديث وروى عنه[١] . كما نال حظًّا مما شاع فى بيئة الكوفة من جدل بين أصحاب الآراء والمعتقدات الكلامية وبخاصة فى بيئة المعتزلة التى تتلمذ لهم إمامه زيد بن على رأس الشيعة الزيدية ، وقد صار الكميت بعدئذ فقيها من فقهاء الشيعة الزيدية[٢] كما كان عالماً بالنجوم مهتدياً بها كذلك[٣].

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة اتصلت ببيئات فكرية متعددة الثقافات، وتلقت معارف مختلفة المصادر .

ولا يلبث الكميت أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ، وليس بصحيح ما يروى من أن الهاشميات كانت أول ما قال من الشعر[٤] وأنه أنشد على بن الحسين الملقب بزين العابدين إحدى هاشمياته[٥] ذلك أن على بن الحسين قد توفى سنة ٩٤ هـ[٦] .

ولم يكن زيد بن على الذى تشيع له الكميت وكتب الهاشميات فى دعم نظريته قد دعا لنفسه بعد أثناء حياة أبيه. وعلى هذا لا تكون الهاشميات أول ما قال من الشعر وإنما سبقها شعر له كثير فى الولاة والخلفاء .

وتذكر الروايات أن الكميت كان يوالى أسرة يمنية مشهورة هى أسرة المهلب وقد وفد على مخلد بن يزيد من المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) ويروى أن الكميت وجد على بابه أربعين شاعراً كلهم ينتظر الإذن له ، وأنه أنشده قصيدة امتدح فيها همته على الرغم من حداثة سنه ، وفيها يقول :

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١
(٢) خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠
(٤) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٩
(٥) خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩
(٦) ابن سعد جـ ٥ ص ١٦٤

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال
قعدت بهم هماتهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال(١)

ثم نراه بعد ذلك يفد على يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ) وتحدثنا الروايات بأنه كان على صلة وثيقة به حتى إن الكميت زين له أن يبتاع سلاّمة التى فتن بها ، ووصفها له بناء على طلبه فقال فى وصفها :

هى شمس النهار فى الحسن إلا أنها فضلت بقتل الطراف
غضة بضة رخيم لعوب وعثة المتن شجنة الأطراف
زانها دلها وثغر نقى وحديث مرتل غير جاف
خلقت فوق منية المتمنى فاقبل النصح يا ابن عبد مناف(٢)

ويمكننا أن نتبين من هذه الروايات أن الكميت كان إلى عهد يزيد ابن عبد الملك راضياً عن بنى أمية ، يفد عليهم وينال جوائزهم ، كما أنه كان موالياً لليمنية مقرباً إليهم .

ولكن هذا لا يستمر طويلا إذ ما لبثت الخصومة أن اشتعلت بين الكميت واليمنية وعلى رأسها خالد القسرى والى هشام بن عبد الملك على العراق (١٠٥-١٢٠هـ) وعلة ذلك أن تشيع الكميت لم يكن قد اكتمل بعد ، ولكنه يصبح شيعياً خالصاً فى هذه الفترة ويشرب قلبه حب الهاشميين ويخلص لهم وده تماماً . وتجلى هذا فى تعلقه بزيد بن على إمام الزيدية الذى أصفاه وده فاستخلصه زيد لنفسه ، وأخذ الكميت منذ ذلك الحين ينظم الهاشميات دفاعاً عن عقيدته حتى إنه ليكاد يعيش من أجل الدفاع عن مذهبه فحسب .

وقد يبدو غريباً ومتناقضاً فى نفس الوقت أن يجمع الكميت إلى عصبيته المذهبية عصبية قبلية ، ولكن المسألة فى الحقيقة لم تكن على هذا النحو وإنما كانت مسألة سياسية محضة أريد بها خدمة عقيدته الشيعية وإمامها الذى كان

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٧ .

يدعو إلى الثورة على بنى أمية فاصطدم بسبب ذلك بخالد القسرى والى العراق اليمنى .

وهناك روايات عديدة ومختلفة حول نشأة هذه الخصومة ، يمكن أن نستخلص منها أن الكميت لم يكن متعصباً على اليمنية ولا معادياً لخالد القسرى قبل أن يشتبك ذلك بعقيدته الزيدية ، فهو لم يهج اليمنية ابتداء وإنما كان أول هجائه لهم فى مذهبته الشهيرة بعد أن استفزه شاعر كلبى من أهل الشام كان يهجو مضراً ويثلبها بأقبح المثالب ، ولم يكتف بذلك وإنما جمع إلى هجاء مضر وثلبها تعصباً آخر شديداً على علىّ بن أبى طالب وبنى هاشم جميعاً وكان هذا هو الدافع الحقيقى لغضب الكميت على اليمنية وهجائها هجاءه الشهير .

وتذكر الروايات أن ذلك الشاعر الكلبى ويدعى حكيم بن عياش كان منقطعاً إلى بنى أمية وأن الكميت قد خشى فى هجائه أن يفتضح أمره فى شعره عن علىّ وبنى هاشم[١] فلما لم يجد بدًّا من هجائه أظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان[٢].

وعلى نفس الوتيرة يمكننا أن ننظر إلى عداء الكميت لخالد القسرى ، فقد خاصمه زيد بن على ، ورأى الكميت أن يتخذ من تعصب خالد لليمن ثغرة ينفذ منها إلى النيل منه فكان أن وقف أمامه متعصباً لمضر وكأنه يريد أن يحدث بشعره فوضى فى العراق بين اليمنية والمضرية فينفذ من خلال ذلك إمامه زيد إلى ما يريد من ثورة وانتقاض على الدولة[٣].

وهكذا لم يكن الأمر أمر عصبية قبلية وإنما كان عصبية للنحلة والعقيدة فهى خصومة سياسية فى أعماقها وليست خصومة عصبية ، ويؤيد ذلك ما صرح به الكميت نفسه حينما أخذ عليه ابنه المستهل فخره فى هجائه للكلبى ببنى أمية وهو يشهد عليهم بالكفر وأنه كان الأجدر به أن يفخر عليه

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .
(٣) التطور والتجديد ص ٢٣٤ .

بعلىّ وببنى هاشم الذين يتولاهم فقال يابنى ، أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية وهم أعداء علىّ عليه السلام فلو ذكرت عليًّا لترك ذكرى وأقبل على هجائه فأكون قد عرضت عليًّا له ولا أجد له ناصراً من بنى أمية[١].

فهو قد فخر على الكلبى ببنى أمية حتى إذا نقض عليه هجاءه قتلوه وإن أمسك عن ذكرهم قتله الغم ، وبهذه الطريقة أخفى الكميت تشيعه فى التعصب القبلى .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور الموقف فى وضوح فالكميت كان شاعراً شيعيًّا متعصباً لبنى هاشم فى مدة ولاية خالد القسرى ، وقد جره هذا إلى إخفاء تشيعه فى التعصب ضد خالد وقبيلته اليمنية وإذن فالأساس عنده كان التشيع ، أما العصبيـــة للمضرية فكانت شيئاً فى الظـــاهر ، ونفس الشىء يصدق على خصومته لحكيم بن عياش الكلبى فقد احتال فى إثارة القبلية ليستر تشيعه وليبعده عن بنى هاشم ، وقد بالغ فى الإبعاد إلى حد الفخر عليه ببنى أمية . وفى اعتقادنا أنه لا تصح تلك الرواية التى تزعم أنه اعتذر عن إجابة حكيم بن عياش لمّا دعاه إلى ذلك بنو أسد متأثراً فى ذلك بإحسان خالد القسرى إليه[٢] فالأحداث تؤكد أنه لم يكن بينهما ولاء ولا إحسان وإنما خصومة وتباغض وحقد وتربص وليس أدل على ذلك من هذه الأبيات التى أرسل بها الكميت إلى أهل مرو فى ثورتهم بأسد بن عبد الله القسرى عندما ولاه أخوه خالد خراسان سنة ١١٧ هـ ففيها دعوة صريحة إلى الثورة عليهما، وإذن فلم تكن العلاقات بينه وبين خالد علاقة إحسان وإنما كان الكميت يداً من الأيادى السوداء التى تلعب فى الخفاء ضد بنى أمية فى العراق وخراسان جميعاً . ولما كانت الخصومة بين الكميت وخالد خصومة سياسية فى الحقيقة يراد بها نصرة الدعوة الشيعية ونصرة زيد بن على خاصة ، وإن اتخذت العصبية القبلية مظهراً خارجيًّا لها فحسب ؛ فإن قصيدته المذهبة

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

على هذا المعنى تعد قصيدة شيعية كتبت لغرض الدعوة الشيعية وخدمة زيد ابن على عن طريق تشتيت الجماعة الإسلامية وبث الفرقة فيها[١].

وهى فضلا عن هذا تعد من أهم القصائد وأقدمها فى العصبيات إذ هجا فيها اليمن هجاء مخزياً ولم يترك حيًّا من أحيائها إلا ولطخه بالمثالب والخصال الدنيئة وقد بلغت أكثر من ثلثمائة بيت ، وليس من ريب فى أن هذه القصيدة قد أحنقت خالداً فظل يتربص بالكميت الدوائر وأقسم ليقتلنه[٢].

وقد ظفر خالد بالكميت ونجح فى إسخاط هشام عليه حتى طاب رأسه وقد ضخم الرواة قصة سخط هشام على الكميت تضخيما واسعاً فعرضوها فى صور مختلفة ومضطربة بل متناقضة أيضاً ، فتزعم إحدى تلك الروايات أن هشاماً كان قد اتهم خالدا وكان يريد خلعه فوجدت بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر فدخل بها على هشام وقرئت عليه فإذا فيها :

تألق برق عندنا وتقابلـــت ... أثاف لقدر الحرب أخشى اقتبالها
فدونك قدر الحرب وهى مقرة ... لكفيك واجعل دون قدر جعالها
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حـــده ... فنلها برسل قبل أن لا تنالها
فتجشم منها ما جشمت من التى ... بسور أهرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم ... بعقدة حزم لا يخاف انحلالها
فما أبر الأقوام إلا لحيلـــــة ... من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها ... وإن لم تبح من لا يريد سؤالها[٣]

فأمر هشام بأن يجمع له الشعراء فجمعوا وقرئت الأبيات عليهم وطلب إليهم أن يجتهدوا فى التعرف على قائلها فأجمعوا على أنها للكميت بن زيد الأسدى من ساعتهم ، فقال هشام نعم هذا الكميت ينذرنى بخالد بن عبدالله ثم كتب من فوره إلى خالد يخبره ، كما أرسل إليه بالأبيات وهو يومئذ بواسط ، فكتب

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٣٧ .
(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٢ .
(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١١٥ .

خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه .

وتمضى الرواية فتزعم أن خالداً نهض بالأمر فطلب من أصحابه أن يأتوه من شعر الكميت بشيء يمدح فيه بنى هاشم ويهجو بنى أمية ليكون دليلا على اتهامه ، فأتوه بلاميته التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأمـــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

وهى قصيدة تكاد تكون هجوماً صرفاً على بنى أمية فكتبها فى كتاب إلى هشام يقول هذا شعر الكميت فإن كان صدق فى هذا فقد صدق فى ذاك ، فلما قرئت على هشام اغتاظ وبخاصة عندما بلغ قول الكميت فيها :

فياساسة هاتوا لنا من جوابكم ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول

وحينئذ كتب إلى خالد يأمره بأن يقطع يدى الكميت ورجليه وبأن يضرب عنقه ويهدم داره ويصلبه على ترابها ، فلما قرأ خالد الخطاب كره أن يستفسد عشيرته وتغاضى عن تنفيذ ما جاء به حتى استطاع أحد أصدقاء الكميت أن ينفذ إليه فى الحبس غلاماً متنكراً يخبره بنية الخليفة فأرسل الكميت على الفور إلى امرأته وكانت تتردد عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحراس ، فلما دخلت إليه لبس ثيابها وخرج فيها عليهم دون أن يشتبهوا فى أمره ، وفى ذلك يقول الكميت :

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوابح والمشلى
على ثياب الغانيات وتحتهـــا عزيمة أمر أشبهت سلة النصل[1]

وتوجه الكميت إلى الشام مستغيثاً بأشراف بنى أمية ، ولما كان ذنبه عظيما فلم يجرؤ أحد على طلب العفو له من هشام ، ونصحه بعض الناس بأن يستجير بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم ، وكان مسلمة مرشحاً لولاية العهد آنذاك ، ولكن الكميت خشى أن يضيع دمه بين صبى وامرأة ، فنصحوه بأن يضرب قبته عند قبر معاوية بن هشام وكان قد توفى وشيكاً كما كان هشام يحبه ، وقد جعل على نفسه أن يزور قبره فى يوم معين

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٥ .

من كل أسبوع وفعل الكميت ذلك فى اليوم المعين لزيارة هشام ، فلما جاء هشام نظر إلى القبر وأمر بعض أعوانه أن ينظروا ما أمر هذه القبة المضروبة عليه ، فرجعوا إليه فقالوا إنه الكميت مستجير بقبر معاوية ابن أمير المؤمنين ، ولكنه لم يعبأ بذلك وأمر بقتله ، فكلمه مسلمة فى شأنه وذكر له أن إخفار الأموات عار على الأحياء ولم يزل يعظم عليه الأمر حتى عفا عنه[١].

وواضح أن الجزء الذى تتحدث عنه هذه الرواية عن إنفاذ خالد قصيدة الكميت اللامية إلى هشام لا تتفق والحقيقة لأن هذه القصيدة لم تكن قد نظمت بعد لاشتمالها على رثاء زيد بن على الذى لم يخرج إلا فى عام ١٢٢ هـ وفى ولاية يوسف بن عمر الثقفى الذى خلف خالد بن عبدالله القسرى على العراق سنة ١٢٠ هـ وكان ذلك بعد إطلاق سراح الكميت مباشرة .

وتذهب بعض الروايات إلى أن خالد بن عبد الله القسرى لما أحفظته المذهبة التى نالت من عشيرته كما نالت من عشائر اليمن جميعاً روّى جارية حسناء قصائد الهاشميات وأعدها ليهديها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بنى أمية وأنفذ إليه هاشميته التى يقول فيها :

فيارب هل إلا بك النصر يبتغى ويارب هل إلا عليك المعول

فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده فأخذته خيل خالد إلى الحبس ثم كان ما كان بعد ذلك من خروجه من السجن بمساعدة زوجه وافتضاح أمرها بعد أن اجتاز الكميت الخطر ولحق ببنى علقمة وكانوا يتشيعون فأقام عندهم مدة متوارياً إلى أن خف عليه الطلب فخرج قاصداً الشام فى جماعة من بنى أسد .

وتتضمن تلك الرواية بعض الأحداث الطريفة التى صادفت الكميت فتذكر أن غراباً سقط على حائط أبى الوضاح الأسدى الذى أخفى الكميت فى بداية هروبه ولما نعب الغراب قال الكميت إنه لمأخوذ وأن الحائط لساقط ، ولم يصبح

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦

الصبح حتى سقط الحائط وتذكر الرواية أيضاً أن ذئباً عرض له فى بعض الطريق يعوى فأطعمه الكميت وسقاه ولكنه ظل يعوى وحينئذ اكتشف الكميت أن الذئب ينبههم إلى أنهم ليسوا على الطريق فلما تيامنوا كف عن العواء ، وتذكر الرواية كذلك أنه لما بلغ الكميت دمشق قصد أشراف قريش الذين أتوا عنبسة بن سعيد بن أبى العاص فنصح له أن يعوذ بقبر معاوية بينما قصد عنبسة مسلمة بن هشام وأبلغه أن الكميت مدحه بمدائح لم يسمع بمثلها وطلب إليه أن يكون السبب فى خلاصة ، فلما دخل مسلمة على أبيه أخبره بأن حاجته مقضية إلا أن تكون فى الكميت ، ولكنه ما زال بأبيه وبمعونة أمه حتى حصل على الأمان له[1].

وهى رواية تشهد على نفسها هى الأخرى بالاختلاق والتضخيم بما اشتملت عليه من تلك التوقعات والاستشرافات التى تحاول إظهار روح الكميت بمظهر الشفافية حتى لتستشف ما تخبئه الأقدار فضلا عن إشارتها إلى نفس اللامية التى لم تكن قد نظمت بعد .

وهناك رواية ثالثة تذهب إلى أن خالداً لم يعدّ لإسخاط هشام على الكميت جارية واحدة كما تذكر الرواية السابقة وإنما أعد لهذا الغرض ثلاثين جارية اشتراهن بأغلى ثمن وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب وروّاهن الهاشميات ودسهن مع نخاس إلى هشام فاشتراهن جميعاً ، ولما أنس إليهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً واستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدهن الشعر فأنشدنه الهاشميات فغضب وسألهن عن صاحب الشعر فأنبأنه بأنه الكميت ، فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأسه ، فبعث خالد إليه فأخذه بليل وأودعه السجن فلما كان الغد أطلع خالد صديقاً له وللكميت هو إبان بن الوليد البجلى على كتاب هشام فاحتال إبان حتى أبلغ الكميت بالأمر ، وتتفق هذه الرواية مع غيرها من الروايات فى خروج الكميت من سجن خالد بمعاونة زوجه حيّى ، وتضيف الرواية أنه قصد الشام فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به

---

(١) الأغانى جـ ٥ ١ ص ١١٠ – ١١١ .

ولكنه صرفه إلى مسلمة بن هشام وقام بالسفارة بين الكميت وبينه ، فأجاره ابن هشام ، ولكن هشاماً يغضب لما تبلغه إجارة ابنه عليه فيدعوه مغيظاً ، ويأمره بإحضار الكميت على الفور ، ويخشى الكميت أن يكون قد أسلمه مسلمة ولكن مسلمة ينصحه بأن يعوذ بقبر معاوية بن هشام على أن يبعث إليه ببنيه فيربط ثيابه بثيابهم ، فلما كان الصبح وأشرف هشام على قبر ابنه من القصر وقال من هذا فأبلغ بأنه مستجير بالقبر فأمر بأن يجار من كان إلا الكميت فلما أبلغ أنه هو أمر بإحضاره أعنف إحضار ولكن هشام اغرورقت عيناه بالدموع وبكى حتى انتحب وهو يرى الكميت وقد ربط ثيابه بثياب الصبيان من ولد ابنه معاوية فرد عليه حريته ووهبه لهم[1] .

والذى يمكن أن نخرج به من هذه الروايات جميعاً ، أن خالداً لما أحفظته المذهبة تربص بالكميت حتى بلغه أمر هاشمياته فاحتال حتى أوصلها إلى سمع هشام فحبس الكميت ولكنه استطاع الخلاص من سجن خالد بمعاونة امرأته وابنة عمه حبى ثم إنه توجه إلى الشام ولكن عن طريق الاستعانة بأشراف قريش من الاتصال بمسلمة بن هشام ، وأنه مدحه لذلك مدائح كثيرة ، فأشار عليه مسلمة بأن يعوذ بقبر معاوية بن هشام الذى مات وشيكا وكان له فى قلب أبيه منزلة كبيرة واستطاع الكميت بذلك وبفضل شفاعة مسلمة أن يسترد حريته .

وكما تختلف الروايات فى شأن حبس الكميت وسخط هشام عليه وكيفية إطلاق سراحه تختلف أيضاً فى تصوير اللقاء الأول بين الكميت وبين هشام .

فتذهب إحدى الروايات إلى أن الكميت لما دخل على هشام سلم ثم قال: « يا أمير المؤمنين غائب آب ومذنب تاب محا بالإنابة ذنبه وبالصدق كذبه ، والتوبة تذهب الحوبة ومثلك حلم عن ذى الجريمة وصفح عن ذى الريبة» . فقال هشام : « ما الذى نجاك من القسرى ؟ » قال الكميت : « صدق النية فى التوبة » ، فقال هشام : « ومن سن لك الغى وأورطك فيه »؟ قال : « الذى أغوى

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ .

آدم فنسى ولم يجد له عزما ، فإن رأيت ياأمير المؤمنين فدتك نفسى أن تأذن لى بمحو الباطل بالحق بالاستماع إلى ما قلته ؟ » فلما أذن له أنشده قوله :

ذكر القلب إلفه المذكـورا   وتلافى من الشباب أخـيرا[1]

بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الكميت عندما أمّنه مسلمة بن هشام وغضب لذلك أبوه ، أخبره مسلمة بأنه قال فيهم شعراً لم يقل أحد مثله ، فأجاز هشام أمان ابنه وأمر بأن يخصص مجلس ينشد فيه الكميت ما قاله فيهم ، فقعد هشام وعنده الأبرش الكلبى وتكلم الكميت بخطبة ارتجلها ما سمع بمثلها قط وامتدحه بقصيدته الرائية التى يقول الرواة إنه ارتجلها ارتجالا فلما بلغ قوله :

الآن صرت إلى أمـيّـة والأمور إلى المصاير

جعل هشام يغمز مسلمة بقضيب فى يده ويقول : اسمع اسمع ، ثم إن الكميت استأذنه فى أن يرثى ابنه معاوية فأذن له فأنشده قصيدته التائية حتى إذا بلغ منها قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين إننى   رأيت يد المعروف بعدك شلت
فدامت عليك بالسلام تحية   ملائكة الله الكرام وصلّت

بكى هشام بكاء شديداً حتى وثب حاجبه فسكنه ، وتمضى الرواية فتذكر أن الكميت مضى إلى منزله آمنا فحشدت له المضرية بالهدايا والألطاف وأمر له مسلمة بن هشام بعشرين ألف درهم كما أمر له هشام بأربعين ألفاً وجمع له بنو أمية فيما بينهم مالا كثيراً وكتب إلى خالد بن عبدالله القسرى بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم ، وتضيف الرواية أنه لم يجمع من قصيدته تلك يومئذ إلا ما حفظه الناس منها ، وأن الكميت سئل عنها فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته ، وودع الكميت هشاماً بعد أن أنشده قوله :

ذكر القلب إلفه المذكـــورا   وتلافى من الشباب أخـيرا[2]

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١١٦ .   (٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١١ .

وتزعم رواية أخرى أن هشاماً عندما أمر بإحضار الكميت أعنف إحضار وجيء به وقد ربط ثيابه بثياب ولد معاوية نظر إليهم فاغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا وقد مات حظه من الدنيا فاجعله هبة لنا ولا تفضحنا فيمن استجار به ، فبكى هشام حتى انتحب ثم أقبل على الكميت فقال له يا كميت أنت القائل :

وإن لا تقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهى شزب

فقال لا والله ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أما بعد فإنى كنت أتهدى فى غمرة وأعوم فى بحر هواية أخبى على عطلها واستفزنى وهلها فتحيرت فى الضلالة وتسكعت فى الجهالة مهرعاً عن الحق جائراً عن القصد أقول الباطل ضلالا وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة واصفح عن الزلة واعف عن الجرمة ثم قال :

كم قال قائلكم لعـــا لك عند عثرته لعاثـــر
وغفرتم لـــذوى الذنـــو ب من الأكابر والأصاغـــر
أبنى أميـــة إنكـــم أهل الوسائل والأوامـــر
ثقتى بكل ملمـــة وعشيرتى دون العشائـــر
أنتم معادن للخـــلا فة كابراً من بعد كابـــر
بالتسعة المتتابعـــــ ين خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامـــة لاتـــزا ل لشافع منكم وواتـــر[1]

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط المنتجعين بحبله من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين فقال له هشام : ويلك يا كميت من زين لك الغواية ؟ ودلاك فى العماية ؟ قال : الذى أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ .

له عزما ، فقال هشام : إيه أنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ... وياحاطباً فى غير حبلك تحطب

فقال الكميت : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبى مالك ... مناخ هو الأرحب الأسهل
نمتْ بأرحامنا الداخلا ... ت من حيث لا ينكر المدخل
بمرة والنضر والمالكين ... رهط هم الأنبل الأنيل
وبارى خزيمة بدر السما ... ء والشمس مفتاح ما يأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... ح على ما بنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفساد ... وحيص من الفتق مارعبلوا[1]

قال هشام : وأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام[2]
من يمت لا يمت فقيداً ومن ... يحى فلا ذو إل ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فقال الكميت : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

الآن صرت إلى أمية ... والأمور إلى المصائر
والآن صرت بها المصيـ ... ـب كمهتد بالأمس حائر
يا ابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والآلـ ... ـف برغم ذى حسد وواغر
دلفا من الشرف التلي ... د إليك بالرفد الموافر
فحللت معتلج البطا ... ح وحل غيرك بالظواهر[3]

فقال هشام : إيه فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٤ .
(٣) المرجع السابق .

أجاع الله من أشبعتمـــوه وأشبع من بجوركم أجيعـــا
بمرضيّ السياسة هاشمـــيّ يكون حياً لأمته ربيعـــا[١]

فقال الكميت : لا تثريب يا أمير المؤمنين . إن رأيت أن تمحو عنى قولى الكاذب ، قال هشام : بماذا فقال الكميت : بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسباً ثاقباً ووجهـــاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكـــن رجدتها له معانا ودورا[٢]

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه : هكذا فليكن الشعر ، ثم قال للكميت : قد رضيت عنك ، فقبل الكميت يده ، وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فلا تجعل لخالد علىّ إمارة ، قال : قد فعلت ، وكتب بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية ، وكتب إلى خالد بأن يخلى سبيل امرأته وبأن يعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوباً ، ففعل[٣] .

والذى يستخلص من هذه الروايات جميعاً أن الكميت قد دخل على هشام مرتين لا مرة واحدة ، وأنه فى المرة الأولى حاول أن يستعطف هشاماً ما وسعه الجهد وأن يعتذر إليه عما بدر منه من الوقوع فى بنى أمية وهجائهم معتلا بأنه كان ضالا . وبأنه الآن أبصر طريق الهدى ، وأن هشاماً حاول هو الآخر أن يكشف عن الدوافع الكامنة وراء هذا الهجاء فكان يسأل الكميت دائماً عمن دفعه إلى الغواية . وليس من شك فى أن هشاماً كان يسأل هذا السؤال متمنياً أن ينزلق الكميت إلى التعريض ببنى هاشم ، ولكن الكميت كان يحيل على الشيطان دائماً ، ولاشك أن الكميت لم يكن مستعداً فى هذه المرة الأولى

(١) المرجع السابق .
(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٤ .
(٣) نفس المرجع .

ويظهر ذلك فى تردده بين الشعر والخطابة فطوراً ينشد وطوراً يخطب ، وفى ارتجاله الأبيات التى قال فيها :

الآن صرت إلى أميـــــة والأمور إلى المصائر

والتى ألف منها الرواة ما يشبه القصيدة لأنه كان يعرج فى أثناء إنشادها إلى الخطابة ثم يعود إلى ارتجال أبيات فيها ، ثم يعود كرة أخرى إلى الخطابة ، ومنها إلى الشعر مرة أخرى ليرثى معاوية بن هشام مأخوذاً فى اضطرابه بحرج موقفه .

وليس شك فى أن لهذا العتاب الذى تذكره الروايات بين هشام والكميت أصلا من الحقيقة ، وقد عنى هشام بتذكير الكميت بما سلف منه فى هجاء بنى أمية الذين يمدحهم الآن وكأنما يصمه بالنفاق والدهان ، وكان الكميت مرغماً على أن يمسح قولا بقول وهجاء بثناء وأن يرضى هشاماً بعد أن أسخطه حرصاً على دمه المهدر .

ويبدو أن الكميت قد أخذ للأمر عدته فى اللقاء الثانى حيث جلس له هشام فأنشده قصيدته الرائية التى مطلعها :

ذكر القلب إلفه المذكـــورا وتلافى من الشباب أخـــيرا

وأنه نجح فى هذه المرة فى أن ينتزع إعجاب هشام بشعره ، وكما تؤكد الروايات ارتجال الكميت فى اللقاء الأول ونسيانه لما ارتجل بعد ارتجاله ، تفيد الروايات أيضاً أنه أعد هذه القصيدة الرائية إعداداً بدليل اعتداده بها وبما سبق به الناس فيها من أهل الجاهلية والإسلام إلى معنى لم يسبق إليه فى وصف الفرس حيث يقول :

يبحث الترب عن كواسره فى المشـ ـرب لا يحشم السقاة الصفيرا

وتتفق الروايات جميعاً على أن الكميت أرضى الأمويين ونال عطاياهم وجوائزهم ، وأنه حرص على أن ينال من هشام أمانا من عدوه اللدود خالد القسرى .

وعاد الكميت إلى الكوفة ، وسرعان ما عزل خالد سنة ١٢٠ هـ وتولى

العراق يوسف بن عمر الثقفى ، فرصد الكوفة بأكثر مما رصدها خالد ، وشدد رقابته على حركات الشيعة ، وما لبث زيد بن على أن خرج سنة ١٢٢ هـ وخذله أنصاره وتفرقوا عنه ولم يثبت معه إلا نفر قليل ، فقتله يوسف بن عمر وصلب جسده فى الكوفة بينما بعث برأسه إلى هشام فى دمشق ، فبعث بها من ثم إلى المدينة حيث ظلت معلقة هناك حتى أنزلت وأحرقت أول عهد الوليد بن يزيد .

ولم يخرج الكميت مع إمامه ، ولم يكن قعوده نتيجة لأنه رفضه كما رفضه كثير من شيعة الكوفة ، وإنما سبب ذلك أنه لم يكن يثق بأهل بلدته ولم يكن يراهم أهلا للاعتماد عليهم ، يضاف إلى ذلك أنه كان فى الثانية والستين من عمره آنذاك وهى سن لا تناسب الخروج ولا الثورة بالإضافة إلى إحجام أصيل فيه وحرص شديد على الحياة صرح به فى شعره ، فقد دعاه زيد إلى نصرته وكتب إليه : أن اخرج معنا يا أعمش ، ألست القائل :

ما أبالى إذا أحفظت أبا القا سم فيكم ملامة اللوام

فرد عليه الكميت بكتاب جاء فيه :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة تظل لها الغربان حولى تحجل[١]

وعلى الرغم من ذلك فقد تولى الكميت أسفاً ينعى على نفسه هذا النكوص عن إمامه وكأنما هزته نهايته المفجعة هزاً . فقال فى إحدى هاشمياته :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه ألهنى لهف للقلب الفروق
حذار منية لابد منها وهل دون المنية من طريق[٢]

فهو نادم إذن على قعوده وخذلانه أمامه ، آسف أشد الأسف على حذره من الموت وهو قدر مقدور لا يستطيع له دفعاً بقعود أو استخفاء .

ولقد كان قعوده هو المخالفة الوحيدة التى خالف فيها إمامه فلست واجداً

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ .
(٢) الهاشميات ص ١٥٧ .

فى شعره ما ينأى به عن مبادئه قيد شعرة إلا فى هذه السبيل ، ويذهب د. شوقى ضيف[١] إلى أنه إنما خالف إمامه فى القعود عامداً ، وأنه لم يكن يرى الخروج عن إيمان واقتناع متأسياً فى ذلك بكثير من الأئمة السابقين كما فى قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة ... تظل لها الغربان حولى تحجل
ولكنّ لى فى آل أحمد أسوة ... وماقد مضى فى سالف الدهر أطول

ونحن نرى أنه لم يقعد عن عقيدة وقناعة وإلا كان رافضيًّا شأنه فى ذلك شأن الشيعة الذين رفضوا زيداً وفارقوه إلى أخيه محمد الباقر وابنه جعفر ، فالخروج أساس من أسس المذهب الزيدى الذى يشترط فى الإمام ضرورة أن يكون قادراً على الخروج حتى يكون إماماً واجب الطاعة[٢] وتحدثنا كتب العقائد بأن أخاه محمداً الباقر قد ناظره فى اشتراطه خروج الإمام لتصح إمامته وتجب طاعته حتى لقد قال لزيد يوماً : على قضية مذهبك ، فوالدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج[٣] . ولسنا نستطيع أن نزعم أن الكميت لم يكن زيديًّا فلا ريب إذن فى أنه لم يقعد عن إيمان شأنه شأن الذين رفضوا زيد وخروجه وإنما قعد عن خوف فى نفسه وعن خوف على نفسه من أهل الكوفة ، والذى يؤيد زعمنا أن الكميت ذهب يبكى بكاء مرًّا حين قتل إمامه ، وراح يلوم نفسه على خذلانه لوماً قاسياً ، وأيضاً فقد ذهب يهجو قاتله يوسف بن عمر هجاء مقذعاً من مثل قوله :

يعز على أحمد بالذى ... أصاب ابنه أمس من يوسف
خبيث من العصبة الأخبثين ... وإن قتل زانين لم أقذف[٤]

وليس من شك فى أن هذا الهجاء قد بلغ مسامع يوسف بن عمر كما بلغه

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٣٩ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢ .
(٤) الهاشميات ص ١٥٧ .

بكاؤه زيداً فظل يترصده متحيناً الفرصة للإيقاع به حتى إذا كانت سنة ١٢٦هـ وفد الكميت عليه يمدحه وليستل ضغنه . ووقف الكميت بين يديه يشيد بشجاعته وهمته وحزمه فى النهوض بإدارة البلاد معرضاً بخالد بن عبد الله القسرى وضعفه ، مستشهداً بحادثة حصره على المنبر يوم شغب عليه الوصفاء الجعافرة فقال من فوره : أطعمونى ماء ، فقال الكميت مقارناً بين يوسف وخالد :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن ... كمن حصنه فيه الرتاج المضبب

وما خالد يستطعم الماء فاغرا ... بعِدْلِك والداعى إلى الموت ينعب

ولم يدر الكميت أنه بوفادته على يوسف بن عمر إنما أمكنه من فرصة طال انتظاره لها ، وكان الجند قياما على رأس يوسف وهم يمانية فلما بلغ الكميت فى مديحه إلى هذا الموضع فى التعريض بخالد القسرى تعصب له الجند فوضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فرجئوه صائحين به مستنكرين أن ينشد الأمير دون أن يستأمره ، فلم يزل الدم ينزف منه حتى مات[١] ولم يتخل عن تشيعه حتى لفظ آخر أنفاسه إذ كان يجود بها ثم يفيق فيفتح عينيه فيقول : اللهم آل محمد .. اللهم آل محمد .. اللهم آل محمد[٢] .

وقد وهم بروكلمان فذهب إلى أن الكميت قد قتله الجند لما خرجت الجعفرية على خالد بن عبد الله القسرى سنة ١٢٦ هـ[٣] ولكن الثابت أن خالداً عزل سنة ١٢٠ هـ وأن يوسف بن عمر قد خلفه على ولاية العراق ، وأيضاً فإن ثورة الجعفرية لم تكن سنة ١٢٦هـ وإنما كانت قبل ذلك، وعلى التحديد سنة ١٢٠ هـ[٤] والذى لاشك فيه أن الكميت قد قتل فى سنة ١٢٦ هـ وفى بداية خلافة مروان ابن محمد[٥] .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٤) لسان الميزان جـ ٦ ص ٧٥ .
(٥) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٤ .

وكما ذهبت حياة الكميت فى سبيل مذهبه ، فقد ذهب شعره كله فى سبيل هذا المذهب أيضاً . لا نستثنى من ذلك إلا ما مدح به مخلد بن يزيد ابن المهلب مبكراً وكان ذلك على الأرجح قبل اعتناقه مذهب الزيدية ، وقد رأينا كيف أن قصيدته المذهبة التى هجا بها أحياء اليمنية ، على الرغم من مظهرها العصبى فإنها ليست إلا قصيدة شيعية تخدم الفكرة الزيدية وتحاول أن تحدث صدعاً ينفذ منه إمامه زيد إلى ما يريد من انتقاض على الدولة ، كما كان لها هدف شيعى آخر وهو صرف شاعر اليمن حكيم بن عياش الذى كان ينتقض علياً وآله ويهجوهم هجاء مرًّا إلى الاشتغال بقومه والنضال دونهم ، فكأن الكميت كان يخفى تشيعه فى العصبية ، وقد بالغ فى العبث بهذا الشاعر إلى حد أنه مكر به ففخر عليه ببنى أمية المضريين ليسكته ويغلبه . أما مدائحه واعتذارياته إلى الأمويين فإنها تحمل على مذهب الشيعة فى التقية ؛ فالكميت لم يمدحهم إلا تحت وطأة الاضطرار وحرصاً على دمه ، وهو مسلك تجيزه مبادئ العقيدة التى يدين بها . ويروى أبو الفرج عن أخيه زيد أن الكميت أرسله إلى أبى جعفر يستأذنه فى أن يمدح بنى أمية فأذن له فى أن يقول ما يشاء[1] .

وكذلك يروى أبو الفرج أن الكميت دخل ذات يوم على أبى جعفر محمد ابن على الباقر فقال له يا كميت أنت القائل :

فالآن صرت إلى أمي ة والأمور إلى المصاير

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ؛ فقال أبو جعفر أما قلت ذلك فإن التقية لتحل[2] ، وعلى هذا المحمل أيضاً تحمل مدائحه فى خالد القسرى وفى يوسف بن عمر الثقفى والحكم بن الصلت وأبان بن الوليد البجلى وكلهم من ولاة بنى أمية ، فهى مدائح اضطرارية يتقى بها الكميت سيوف بنى أمية وولاتهم وليست طلباً للدنيا كما يزعم بعض

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١

النقاد القدماء كابن قتيبة ، ولكن الكميت فى اعتقادنا لم يكن ليطلب الدنيا عند بنى أمية وهو يرفض أن يأخذ عطايا بنى هاشم ، وقد أعطاه ، يوماً أبو جعفر محمد بن على ألف دينار وكسوة بعد أن أنشده لاميته المشهورة ، فقال الكميت والله ما أحببتكم للدنيا ولو أردتها لأتيت من هى فى يديه ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسادكم فإنى أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله[١] وتذكر بعض الأخبار أنه دخل يوماً على فاطمة بنت الحسين فجاءته بقدح فيه سويق فحركته بيدها وسقته بشربة ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنى لم أحبكم للدنيا[٢] .

وكما أن حب الكميت بنى هاشم لم يكن للدنيا فقد أحبوه هم أيضاً وقدروه تقديراً وأنزلوه من أنفسهم منزلا كريماً ، وقد بالغ الشيعة فى تقديره إلى درجة التهويل والافتعال ، وفى أخباره التى يرويها أبو الفرج رؤى تنسب لدعبل ولنصر ابن مزاحم ولسعد الأسدى يجمعون فيها على أنهم رأوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه أوصى دعبلا بالكميت ونهاه عنه وذكر أن الله غفر له بقوله :

فلازلت فيهم حيث يتهمونني ولازلت فى أشياعهم أتقلب

وأنه صلى الله عليه وسلم أقرأ سعداً السلام على الكميت ودعاه أن يبلغه أن الله غفر له ببائيته الشهيرة ، وأن الكميت تبدى فى منام نصر بن مزاحم ينشد إحدى هاشمياته بين يدى النبى[٣] وهى مظاهر تدل على ما حظى به الكميت من تقدير الشيعة جزاء وفاقاً لما قدمه لبنى هاشم من انتصار لهم ودفاع عن حقهم وهو لم يكن ليقنع بأن يمدحهم وإنما يعمد إلى تقرير نحلتهم تقريراً قوامه الجدل والاحتجاج .

وقد لاحظ النقاد القدامى اختلاف شعره فى مديح بنى أمية عن هاشمياته وهى ملاحظة جديرة بالاعتبار فقد قال ابن شبرمة : إنك قلت فى بنى هاشم

---

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٧٠ ، الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦

(٢) الاغانى جـ ١٥ ص ١١٦

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٨

فأحسنت وقد قلت فى بنى أمية أفضل فقال الكميت : إنى إذا قلت أحببت أن أحسن[١] وإن كان هذا حقًّا فى اعتقاد الكميت فإنه ليس الحقيقة بكمالها ، فليس الأمر أمر إحسان وإرادة فيه فحسب ، وإنما الأمر يرجع إلى مخالفة الهاشميات للذوق المألوف فى الشعر العربى التقليدى الذى يعتمد على التعبير عن الشعور والعواطف بطريق التصوير فى أطر محدودة من النسيب والمدح والرثاء والفخر والهجاء ، بينما تصدر الهاشميات عن ذوق جديد لا يعبر فحسب عن الشعور والعواطف وإنما يعبر أيضاً عن الفكر ، بل إن تعبيره عن الفكر مقدم على تعبيره عن العواطف .

وليس من شك فى أننا نعذر ابن شبرمة وأضرابه الذين ألفوا من الشعر ما يصدر عن الوجدان ولم يألفوا منه بعد مايصدر عن العقل ، ولكننا لا يمكن أن نعذر ابن قتيبة فى توهمه أن الكميت كان فى مديحه لبنى أمية أجود من مديحه للطالبيين بسبب طمعه فى دنياهم لأن الكميت لم يمدح أشخاص الطالبيين بالصورة التى مدح بها بنى أمية فلم يقف عند طالبى بعينه لأنه كان بصدد الدفاع عن نظرية معينة بينما كان فى مديحه لبنى أمية مهتما بشخوصهم فحسب ، وفرق بين مديح الأشخاص والدعوة لنظرية معينة ، ولهذا فإنه لا وجه للمقارنة بين هاشميات الكميت ومدائحه لبنى أمية أو لسواهم ، وهو لم يكن متكالباً على مديحهم وإنما مدحهم تحت ظلال سيوفهم تقية ومداراة .

وكذلك لاحق لنا فى أن نذهب مذهب بعض الدارسين فى محاسبة الكميت على أنه لم يستلهم شخصيات آل البيت الغنية بإمكانيات الإلهام فى مديحه أو تبجيلهم للشعور الدينى فى استيحاء آيات من الشعر الدينى أو استمداد مآسى آل البيت وحوادثهم التى لاقى منها آل البيت ما لاقوه فى شعره ، كما لا حق لنا فى أن نقرنه إلى شاعر كدعبل أو كغيره ، ولا أن نتمنى عليه لو كان وجه ما وجد من آجر وجص فى غير الوجهة التى التزم بها حتى لا يقع فيما وقع فيه من الإسفاف والتكلف[٢] .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ (٢) أدب الخوارج ص ١٣٦

وليس ذلك إلا لأنه لم يعمد إلى السير فى دروب الشعراء المألوفة ، فالتوى به الطريق وإنما هو قد عمد عمداً الى درب جديد من دروب الشعر سار فيه لأول مرة فلا يحق لنا حسابه إذن إلا فى حدود ما قصد إليه والتزم به . والحق أن الهاشميات من هذه الناحية تصور لنا التطور الذى طرأ على العقل العربى فى هذه الآونة بما تشتمل عليه من جدال وحجاج فى مسألة حق الهاشميين تماماً كما كانت مسائل الكلام تناقش فى بيئات المتكلمين .

فهى ليست شعراً تصويرياً معبراً عن الشعور فحسب وإنما هى فى الأصل فكرة محددة ذات إطار متناسق وهدف معين تقصد إليه ، ومعنى هذا أن الكميت لم يعن فى هاشمياته بفن التعبير والتصوير وإنما كان همه فن الاحتجاج وأن يشفع احتجاجه بكل ما وصل إليه العقل العربى فى هذا العصر من براعة فى الاستدلال والجدال والإقناع ، وهى براعة ثقفها الكميت عن إمامه زيد ابن على وعن واصل بن عطاء الذى تتلمذا عليه جميعاً .

ومن هنا كانت الهاشميات شعراً لا كالشعر أو بعبارة أخرى باباً جديداً من أبواب الشعر فتحه الكميت لأول مرة ، وهو باب التقرير والاحتجاج ، وإن كانت ملاحظة ابن شبرمة ملاحظة ساذجة ، كتفت بالوصف دون التقرير فميزت بين لونين مختلفين فى شعر الكميت من ناحية الغرض ولكنه لم يتنبه للفرق بينهما من ناحية المعالجة الفنية ، فإن غيره من القدماء قد لاحظ ما أدخله إلى الشعر العربى من حجاج واستدلال فقد لاحظ الجاحظ أن الكميت هو أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج[1] كما لاحظ غيره أن الكميت خطيب لا شاعر[2] وقد سئل عنه بشار فقال إنه ليس بشاعر ولم يستثن له إلا بيتين فى الهجاء[3] .

وما هذا إلا لأنهم رأوه يسلك مسلكاً جديداً ليس مألوفاً عندهم ، وهو مسلك

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٢

(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ٤٢

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٥٩

يكاد يجعل هاشمياته أشبه ما تكون بمناظرة فى حقوق الهاشميين لأنه لا يعنى بشعره عناية غيره من الشعراء الذين لا يلتزمون بعقيدة أو يدينون لمذهب ، وإنما هو يعنى به ، داعية يدعو لمذهب معين وتنصب كل عنايته على طرق الاستدلال :

وأرانا محتاجين إلى أن نسارع فنقرر أن ليس معنى هذا خلو هاشمياته من الفن الشعرى المألوف للأذواق العربية بما فى ذلك من تصوير وعاطفة وتعبير عن المشاعر . إذ قد حفلت الهاشميات بالتعبير عن حب الكميت لآل البيت واستشعاره الولاء لهم فلم يكن له من دوافع فى الحقيقة إلى نظمها غير تلك العاطفة المتأججة وتلك المشاعر الملتهبة ولكننا نقصد أن الهاشميات تأتى فيها العاطفة فى عناية الشاعر تالية لفن الاحتجاج والاستدلال الذى عناه فى تقرير حق آل البيت . فالهاشميات إذن فكر يصحبه شعور أو هى نظام فكرى خاص لا يجد غضاضة فى الاستعانة بالعواطف والمشاعر ، إلا أنها لا تقوم على الإقناع العاطفى ولا تعتمد عليه وإنما تقوم وتعتمد على الإقناع العقلى أصلا ومن أجل ذلك فقد ذهب البعض إلى أن شعره أشبه ما يكون بالخطب لأنه حجاج وجدال وإقناع واستدلال :

ولقد استمد الكميت عناصر استدلاله من النظر العقلى المحض ، كما استمدها من القرآن الكريم وما فى آياته من تقرير لحقوق الأقربين وقواعد الميراث ، على نحو ما نرى فى هذه الهاشمية التى تقرر حقوق بنى هاشم فى مهارة عقلية بديعة ، يقول الكميت :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم ... فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية ... تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت ... لكم نصب فيها لذى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورّثتهم ذاك أم ولا أب

يرون لهم فضلاعلى الناس واجباً سفاها وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى به دان شرقى لكم ومغـــرّب
فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم ونعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثـــه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعكّ ولخم والسكون وحمـــير وكندة والحيان بكر وتغلب
ولانتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب
وما كانت الأنصار فيها أذلة ولا رغباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها ويوم حنين والدماء تصبّب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب[1]

والأبيات تدور حول تقرير حق البيت الهاشمى فى الخلافة ، فبنو أمية يسوسون الناس بحق الهاشميين المغتصب على الرغم من أن القرآن الكريم يقرر حقهم فى سورة حاميم وغيرها فى آيات ناطقة بأحقيّهم هى مصدر عذاب ونصب لبنى أمية إذ لا يستطيعون طمسها ولا صرفها عن وجهها .

ثم ينتقل الكميت من هذه المسألة إلى مسألة الوراثة التى اعتمدها بنو أمية فى انتقال الخلافة فى أعقابهم فيقول إنهم يحتجون بأن آباءهم أورثوها لهم ، وهو ميراث باطل لأنه مغتصب فى الأصل ، فصاحب الحق الأول فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وبنو هاشم أولى بميراثه من غيرهم إذ هم آله الأقربون ، ويقرر الكميت بطلان دعوى الأمويين وتناقضهم ، فهم إذ يدّعون الحق فى ميراث النبى يدفعون حق آله فى وراثته بحجة أنه لا يورث ، فكيف إذن يتأتى أن يورث وألا يورث ؟ على أنه إن كان لا يورث لكان معنى هذا أن الخلافة حق مشاع غير مقصور على قريش ولكان لجميع القبائل العربية المختلفة حق فيها ، ولكان للأنصار لقاء ما آووا ونصروا الحظ الأوفر فيها .

---

(١) الهاشميات ص ٤٢

ولما لم يكن شيء من هذا ، فقد تأكد أنها ليست ميراثاً شائعاً، وأصبح مفهوماً أنها ميراث خاص بقريش ، ومادامت هكذا فليتبع فى تقريرها قانون المواريث الذى جاء به الإسلام ونص عليه القرآن ولترد على أهلها من أيدى غاصبيهم فهى تركة الرسول وهم أقرباؤه وأولى بميراثه .

وهكذا استطاع الكميت فى براعة أن يقرر حق الهاشميين تقريراً استمده من زعم الأمويين أنفسهم بأن الخلافة لا ينبغى أن تكون إلا فى قريش ، ويدفعون بهذه الحجة قبائل العرب والأنصار ، ولما لم يكن لتقديم قريش دليل إلا القرابة من رسول الله فإن بنى هاشم يكونون أولى من بنى أمية بالخلافة لأنهم أقرب رحماً إلى النبى منهم . وليس حقاً ماذهب إليه بعض الدارسين انطلاقاً من هذه النقطة من أن الزيدية كانت تتعصب فى مسألة الخلافة تعصباً قبلياً وأن الكميت يتعصب هو الآخر تعصباً قبلياً أو أنه يصدر عن عصبية فى احتجاجه بما يدل على فهم لفكرة الخلافة فى أضيق معانيها وأبسط صورها من ناحية قبلية محضة[1].

فالكميت إنما يستخدم هذه الفكرة القبلية وهى من أفكار الأمويين سنداً وحجة فى معرض رده على مزاعمهم أو بعبارة أخرى أنه يرد عليهم بكلامهم الذى يفهمونه ويعتقدونه ليس غير .

وعلى هذا النحو يتحول شعر الكميت حججاً وأدلة لا تتصل من قريب أو بعيد بتلك المنابع القديمة التى استمد منها الشعراء وإنما تتصل بمنابع عقلية جديدة ، وهى تتوسل فى نفس الوقت إلى تقرير حق بنى هاشم فى الخلافة بنفس الوسيلة التى كان ينتهجها المتكلمون فيما يقررون من مسائل وهذا معنى ما نقوله من أنه اكتسب وسائل المتكلمين فى الجدال والحوار والاستدلال من تلمذته هو وإمامه لواصل بن عطاء وما أظننا إذا قلنا إن هاشميات الكميت كانت منحة المعتزلة ومنحة العقل الذى كونوه فى العصر الأموى نكون مخطئين

---

(١) أدب الخوارج ص ١٢٩

أو مبعدين فى الوهم فهى صورة دقيقة لطرق التموم فى استدلالهم وحوارهم ومايشفعون به هذا الاستدلال والحوار من نظر عقلى عميق[١] .

ومعنى هذا أن شعر الكميت لم يكتسب هذه الصفة لكونة شعراً شيعيًّا فهو بلا شك يختلف عن كل شعر الشيعة الذى ظل يصدر عن العاطفة وحدها دائراً فى نفس مداره القديم من البكاء والرثاء والثورة والتحريض والهجاء .

وإنما انماز شعر الكميت عن شعر الشيعة بما توافر له من منابع عقلية جديدة ، صدر عنها لهذا العصر ، وبمفارقته للصياغة الشعورية التقليدية إلى صياغة فكرية أو ذهنية جديدة مدعمة بكل ما عرفه العقل العربى حينئذ من طرق الجدال والحجاج والاستدلال .

ومن هنا تبرز أهمية الكميت بين شعراء عصره ، فقد تنكب الدروب الموروثة واختار درباً جديداً لما يطأه أحد من قبله فسار فيه ببراعة ونجح فى تحويل شعره من مجالات العاطفة إلى مجالات الفكر ، فإذا هو مقالة تقرر حق الهاشميين فى الخلافة ، فى حدود النظرية الشيعية الزيدية ، مدعمة بالحجج والأدلة ، ولكنها مقالة تختلف عن مقالات أصحاب الفرق والنحل من وجه واحد فحسب وهو أنها شكلت فى قالب شعرى .

وكما كان الكميت أول شاعر عربى يتحول بالشعر العربى عن مجالات العاطفة إلى مجالات العقل ، فإنه أيضاً كان أول شاعر خصص لنظرية عقائدية مجموعة من قصائده لقبت بلقب يدل على غايته أو منزعه .

وكان الشاعر حينما يلم بعقيدة أو مبدأ يؤمن به يكتب فيه أبياتاً أو قصيدة ولا يستطيع أن يجردها عن الأشخاص الذين يعبرون عن عقيدته أو مبدئه أما عند الكميت فإن هاشمياته جميعاً تستغرقها فكرة واحدة ولا تدور فى فلك شخص أو أشخاص لأنها إنما كتبت لتخدم نظرية معينة التزم بها الشاعر وهى لذلك تتجرد حتى عن أشخاص الأئمة الذين تدور حولهم النظرية نفسها

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٤٥

فليس فى الهاشميات ذكر لأحد منهم حتى هاشميته اللامية التى نظمها فى رثاء إمامه ليس فيها اسمه من قريب أو بعيد وكذلك نراه فى تعلقه بآل البيت ودخوله عليهم لا يقدم لها مديحاً شخصياً وإنما ينشدهم أشعاره فى الدفاع عن حقهم الذى هو لباب النظرية التى يعتنقها، والروايات تذكر أنه كان يدخل على أبى عبد الله جعفر بن محمد فينشده فى الهاشميين لا يذكره بشىء خاص وكذلك كان يفعل مع أبيه محمد الباقر[١] .

وهذا يوضح أن الهاشميات ليست إلا مقالة كتبت احتجاجاً لنظرية معينة، وهى لهذا لاتهتم بشخص صاحب النظرية بقدر ما تهتم بالنظرية ذاتها[٢] .

ومن هذه النقطة يمكننا أن نرد على مالاحظه بعض الدارسين المحدثين من ضعف شخصية الكميت فى شعره ، وأن شعره لايمثل وحدة متماسكة أوشخصية واحدة قوية[٣] ، إذ لم يكن هم الكميت مصروفاً إلى شخصيته أو شخصية غيره وإنما كان على النقيض من ذلك يجتهد فى ألا يدور شعره حول شخص ما ولو كان إمامه الذى تدور حوله عقيدته . وهو فى هذا لابد أن يختلف عن صديقه الطرماح الذى تظهر شخصيته واضحة فى شعره على الرغم من مخالفة هذا لما كان ينبغى أن يكون نتيجة لتعلق الشيعة بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبادئ وتعلق الخوارج بالمبادئ دون الأشخاص .

ولقد ساعد الكميت على هذا التجرد أن مذهب الزيدية لا يتقيد بأن يكون الإمام شخصاً معيناً بذاته ، ولا يقصر هذ الحق على أولاد الحسن دون أولاد الحسين أو العكس وإنما يطلقه فى أبناء فاطمة جميعاً[٤] .

وقد انطلق الكميت يدافع فى هاشمياته عن حقوق آل البيت ملتزماً

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦
(٢) التطور والتجديد ص ٢٤٦
(٣) أدب الخوارج ص ١٣٠
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠

فى دفاعه بحدود النظرية الزيدية ملتزماً بكل ما يلتزمه إمامه ، وكان يزيد معتدلا ، واعتداله ليس إلا نتيجة للسماحة التى يقود إليها حكم المنطق والعقل فى آرائه وهى منحة العقل المعتزلى للشيعة وبفضلها ترفع الزيديون عن التعصب المقيت والغلو المتطرف الذى وقع فيه غيرهم من المتشيعين .

وبدافع من هذا الاعتدال وتأثراً بالمعتزلة كان زيد يصحح إمامة المفضول مع وجود الأفضل وقد صحت عنده خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينيه راعوها[١] .

وكان أخوه محمد الباقر لايزال يعتب عليه تتلمذه لواصل بن عطاء وإعجابه بآرائه وهو يجوز الخطأ على جده فى قتال الناكثين [٢] ولكن زيداً لم ينصرف عن دروس واصل ، ولم يرجع عن رأيه .

وقد تسبب هذا الرأى فى انشقاق كثير من شيعة الكوفة على زيد فخرج عليه جماعة فرفضوه وأسقطوا حقه فى الإمامة ولكن الكميت وقف مع إمامه يدافع عن رأيه بمثل قوله :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ... أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا
ولا أقول إذا لم يعطيا فدكـــا ... بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان بـــــه ... يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[٣]

وكذلك وقف الكميت من وراء إمامه يحوّل نصوص مذهبه شعراً ، ومن هنا كانت الهاشميات نصاً طريفاً لمذهب الزيدية فى أول تكونه ، وقد مر بنا أن شروط هذا المذهب فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة على الإطلاق على أن يكون عالماً ، زاهداً ، شجاعاً ، سخياً[٤] فإذا ما نظرنا فى الهاشميات وجدنا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢
(٣) الهاشميات ص ١٥٦
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٩

هذه الصفات تتردد فيها تردداً واسعاً من مثل قوله :

الحماة الكفاة فى الحرب إن لـ ـفّ ضراما وقودهـا بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النـا س فأوى حواضن الأيتـام
غالبين هاشميين فى العلـ ـم ربوا من عطيـة العـلاّم
وهم الآخذون من ثقـة الأمـ ـر بتقواهم عرى لا انفصام[1]

ونرى فى هاشمياته صفة خاصة لم يشر إليها الشهرستانى على الرغم من أهميتها فى رأى زيد وفى رأى الناس وهى صفة العدل التى تدور فى الهاشميات دوراناً كثيراً عند ذكر عدل الإمام المنتظر ، وعدل الأئمة السابقين والمعاصرين ، ولا يقف الكميت عند مجرد بسطها وإنما يتوسل إلى تقريرها عن طريق تقرير جور بنى أمية مقارناً بين سياسة الطرفين فى رعاية الناس ، مقرراً عدل أئمة الشيعة وجور أعدائهم الأمويين الذين يسوسون الرعية سياسة غاشمة تقوم على استنزاف كل ما يملكون ويدخرون وكأنما كانت الرعية غنما لهم يجزون صوفها ويحتلبونها وينهشون لحمها ولا يجدون غضاضة بعد كل هذا فى زجرها ونهرها ، بينما ينهج بنو هاشم العدول سياسة العدل الخالص بين الناس مستقيمين على الجادة ، ولكن بنى أمية ينحرفون عنها مثقلين بالأوزار والآثام يقول :

القريبين من نـدى والبعيدي ـن من الجور فى عرى الأحكام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السـ ـيرة طبّين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعيـة الأنعـام
لا كعبـد المليـك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كرأى ذوى الثلـ ـة فى الثائجات جنح الظلام
جز ذى الصوف وانتقاء لذى المخـ ـة وانعق ودعدعا بالبهام
فهم الأرافون بالناس فى الـرأ فة والأحلمـون فى الأحلام
أخذوا القصد واستقاموا عليه حين زلت زوامل الآثام[2]

(١) الهاشميات ص ٢٠
(٢) الهاشميات ص ٢٠

وهكذا تتوالى هذه الصفات التى اشترطها الزيدية فى الإمام ، فى هاشميات الكميت ويظنها من لم يقف على حقيقة مذهبه تكراراً وخطابة ، بل وإسفافاً معيباً تدفعه إليه الرغبة فى الإطالة والشغف بتكرار المعنى الواحد بشكل واضح فى القصيدة الواحدة بشكل ممل[١].

ولكنها فى الحقيقة نظرية الزيدية ينهض بإذاعتها وتقريرها الكميت فيطيل ويكثر من ترديدها شأنه فى ذلك شأن كل داعية ليثبت المذهب فى نفوس أتباعه ، ويدعو غيرهم إلى اتباعه ، وكما غاب عن هؤلاء أنه إنما يقرر نظرية المذهب الذى اعتنقه ، ودعا إليه فظنوه شغفاً بالتكرار والإطالة التى أدت إلى الإسفاف ، غابت عنهم الحقيقة فى تعليل ما ظنوه إسفافاً بأنه لم يكن قوى الإيمان بعقيدته بدليل جهره بأهم مغامز آل البيت وهو القعود عن الخروج فى سبيل حقهم ولأنه كان فيما نقل إليهم أصم فهو لذلك لا يمكن أن يشعر بإيذاء التكرار فى المعنى والقول بمثل ما يشعر به الذى يسمع ، ولأن الشعور الدينى فى الشعر العربى إلى عصره على الأقل كان شعوراً ضعيفاً غالباً حتى إن إحساس شعراء العرب الدينى لم يلهمهم شعراً قوياً إلى زمن الكميت ، ولأن الكميت كان يوجه بشعره إلى الشيعة وإلى عامتهم بالذات لا يعدوهم إلى غيرهم من المسلمين بدليل أن شعره كان متداولا فى الكوفة كثيراً حتى إن عكرمة الضبى ليروى عن أبيه أنه أدرك الناس بالكوفة من لم يرو « طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب » فليس بشيعى[٢].

فأما عن ضعف عقيدة الكميت وغمزه لآل البيت فى قعودهم فلم يكن الكميت وحده الذى يرى هذا وإنما كان يشاركه طائفة كبيرة من الشيعة على رأسهم أبو جعفر محمد بن على أخى زيد الذى ناظر أخاه فى اشتراطه الخروج فى الإمام الحق ، واحتج عليه بأن إمامة أبيهما على بن الحسين تصبح إذن باطلة لأنه لم يخرج ولم ير الخروج مطلقاً[٣].

---

(١) أدب الخوارج ص ١٣٤ (٢) نفس المرجع

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢

فلسنا نقول إن الكميت كان ضعيف الإيمان فى تشيعه إلا بمقدار ما يمكننا القول بمثل ذلك عن أبى جعفر أو أبيه على بن الحسين وغير أولئك من الذين رأوا القعود .

وأما عن أن الكميت فيما نقل إلى هؤلاء الدارسين كان أصم فإننا بدورنا لم نجد ما يمكن أن يستدل به على ذلك من شتى النقول غير ما رواه أبو الفرج فى وصفه من أنه كان طويلا أصم ولا يمكن إطلاقاً أن يكون أبو الفرج قد قصد إلى أنه كان لا يسمع فمن معانى كلمة الأصم: المتين الصلب والذى لا يطمع فيه، والذى لا يرد عن هواه وكلها معان تعد أليق مما سبقها فى نص أبى الفرج من صفة الطول منها بعدم السمع ، أى أن الكميت كان طويلا متيناً لا تتقحمه العيون ولا يطمع فيه وربما كان سبب التوهم فى حمل الكلمة على معنى عدم السمع أن أبا الفرج ذكر بعدها أن الكميت لم يكن حسن الصوت ولا جيد الإنشاد وأنه كان ينيب عنه ابنه المستهل فى ذلك[1] .

ولكننا يجب ألا ننسى أن الكميت كان معلما ، وأن من المسلمات أن يكون المعلم سميعاً ولو كان الكميت شاذاً فى خروجه على هذه المسامة لرويت فى ذلك عنه روايات طريفة .

وأما عن أن الشعور الدينى إلى عصر الكميت كان ضعيفاً ، وأن الإحساس الدينى لم يلهم شعراء العرب شعراً قوياً إلى زمن الكميت فى مفتتح القرن الثانى من الهجرة فهذه دعوى ينقضها ما بين أيدينا من شعر فى عصر النبى والخلفاء الراشدين وشعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام وشعر المخضرمين وما ندرس من شعر الفرق الإسلامية وفيها جميعاً طوابع إسلامية قوية لا تنكر .

وأما عن رواية عكرمة عن أبيه فلا يستفاد منها أكثر من أن قصيدة الكميت المشار إليها ذاعت فى شيعة الكوفة حتى إنهم جميعاً كانوا يروونها لدرجة أن من لم يروها منهم كان لايعد شيعياً ، وليس فى هذا ما يفهم منه أن روايتها

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢

كانت محظورة على غيرهم أو أنه كان على غيرهم روايتها ليصح الزعم بأن الكميت كان يتوجه بشعره إلى صنف معين من سكان الدولة الإسلامية وهم عامة الشيعة من أهل الكوفة .

وما وقفنا هذه الوقفة إلا لكى نعود فنكرر مرة أخرى أن الكميت لم يكن شاعراً على الطريقة المألوفة من الشعراء وإنما كانت شعره لوناً جديداً على الذوق العربى التقليدى ومحاولة رائدة فى إدخال الشعر العربى من باب جديد واستمداده لمنابع عقلية جديدة وصياغته صياغة فكرية لم يسبق إليها تتحول بالشعر من مجال العاطفة والشعر إلى مجال الفكر والفعل المحض ومحاولة التصدى للتعبير عن نظرية مذهبية مدعمة بالنظر العقلى وطرائق المتكلمين ووسائلهم فى الاحتجاج والاستدلال حتى ليخرج ديوانه الهاشميات نصًّا طريفاً لمذهب الزيدية بكل تفاصيله ووقائعه بل إنه ليتجاوز ذلك إلى الاستدراك على كتب الملل والنحل التى أغفلت بعض مبادئ الزيدية بينما سجلها هو فى هاشمياته وبسطها وقررها كفكرة العدل التى رأيناها تدور فى شعره دوراناً واسعاً ، وتتكرر فى أكثر من موضع ، وكفكرة أن الإمام الشيعى هو الذى يحكم بين الناس كما أراد الله فى كتابه وكما سن ذلك الرسول فى حديثه وهو أصل آخر من أصول الزيدية لا نجده فى كتب الفرق والنحل وقد استخرج الكميت من هذا الأصل مااستطاع به أن يبرز ابتعاد الحكم الأموى عن هدى الكتاب والسنة وتعطيله لأحكامها حتى كاد الناس يشكون فى أنهم على ملة الإسلام ، يقول :

وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتنحل
أأهل كتاب فيه نحن وأنتم ... على الحق نقضى بالكتاب ونعدل
كأن كتاب الله يعنى بأمره ... وبالنهى فيه الكودنىُّ المركل
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتام حتام العناء المطول
وماضرب الأمثال فى الجور قبلنا ... لأجور من حكامنا المتمثل
لهم كل عام بدعة يحدثونها ... أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا
كما ابتدع الرهبان مالم يجئ به ... كتاب ولا وحى من الله منزل

تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
فيارب هل إلا بك النصر يبتغى عليهم وهل إلا عليك المعول[١]

وليس هذا تنديداً ببنى أمية فحسب وإنما هو فى الحقيقة تقرير لأصل من أصول الزيدية ولكنه تقرير متحمس يتضمن التنديد بالنظم الدنيوية الفاسدة التى اتبعها بنو أمية فى حكمهم المسلمين والتى خرجت بهم عن روح الإسلام وجعلت الثورة عليهم ضرورة واجبة .

وقد تضمنت الهاشميات فضلا عن مبادئ الزيدية وأصولها التى دعا إليها زيد بن على عقيدة الشيعة بكل فرقها فى وصية النبى لعلى يوم غدير خمّ ، يقول الكميت :

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان له الولايـة لو أطيعا

وقد مر بنا أن الزيدية على الرغم من اعتقادها فى الوصية لا تبطل خلافة أبى بكر وعمر ولا تعتبرهما مغتصبين لحق علىّ فى الخلافة إذ ولاّهما الصحابة لمصلحة ارتأوها . ولهذا قرنوا الولاية بالطاعة .

ولا نجد فى الهاشميات شيئاً مما يعتقده غلاة الشيعة فى تصور حقيقة الإمام أو فى عصمته وعلمه اللدنى الذى بثه الله فيه ، فليس فى الهاشميات شىء من هذا وإنما هو فى حقيقة الأمر وواقعه وثيقة المذهب الزيدى بحذافيره ، فالإمام ينبغى أن يكون عالماً فحسب دون غلو أو تقديس ودون شعوذة ، أو تقرير لرجعة أو تناسخ أو نحو ذلك مما يؤمن به غلاة الشيعة .

ولذلك فنحن نعجب من قول الجاحظ عن الكميت إنه كان شيعيا من الغالية[٢] ولعل الجاحظ نعت الكميت بذلك إرضاء للعباسيين الذين كانوا يقررون أنهم أصحاب ميراث النبى وأحق به .. فكان طبيعياً أن يغضبوا على الكميت الذى كان يقرر فى حماسة إرث على وأبنائه من فاطمة للرسول صلى الله

---

(١) الهاشميات ص ١٢٣
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ .

عليه وسلم ، وكان هذا لا يرضى العباسيين منه ، فكان طبيعيًّا إذن أن يغضبوا عليه[١] .

ويذكر أبوالفرج أن العباسيين كانوا يسخرون بابنه المستهل ويحملون عليه ويضربونه ويعيّرونه بمديح بنى أمية فى شعر أبيه وماكان فى شعره دالا على صيرورته إليهم[٢] كما يذكر أن العسس أخذته فحبس ، وكان من قوله فى استعطاف أبى جعفر المنصور :

أئن نحن خفنا فى زمان عدوكم وخفناكم إن البلاء لراكــد[٣]

ولم يكن هذا إلا ترجمة لما كان يشعر به من أسف ومن سخرية الناس به فقد كان قومه من بنى أسد إذا ما استحثهم لحمايته يقولون هازئين : لقد أصابوا فيك فلا تكذب أباك الذى يقول فيهم :

والمصيبون باب ما أخطأ النا س ومرسى قواعد الإسلام[٤]

ويذهب د. شوقى ضيف[٥] إلى أن هذا الاضطهاد دفع المستهل إلى أن ينحل على أبيه شعراً يشيد بالعباس بن عبد المطلب جد العباسيين وأدخله فى الهاشميات[٦] ويؤكد هذا أننا لا نعرف فى أخبار الكميت شيئاً عن ذلك .

ولم يقتصر الجاحظ على نعت الكميت بالغلو فى التشيع فحسب وإنما بأنه أيضاً أزرى على مدحه للرسول فى هاشمياته وعدّ المذهب الذى ذهب إليه فى مديحه من غرائب الحمق حيث يقول :

وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنفنى القائلون أو ثلبوا

وأضاف الجاحظ أنه لم ير شاعر مدح النبي فاعترض عليه واحد من جميع

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٥٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ – ١١٧
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٨
(٤) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦
(٥) التطور والتجديد ص ٢٥٣
(٦) أنظر الهاشميات ص ٢١ ، ٦٣

الناس حتى يزعم أن أناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه[١].

ولا شك فى أن الجاحظ فى إزرائه على الكميت إنما يسير فى ركاب العباسيين متناسياً أن بنى أمية كانوا يسخطون على الكميت حقًّا لمديحه الرسول فى هاشمياته مادام هذا المديح فى معرض الدفاع عن حق بنى هاشم ، وقد أكثر الكميت الشكوى من تعنيف الناس له على هذا المديح من مثل قوله :

ألم ترنى من حب آل محمد ... أروح وأغدو خائفاً أترقب
على أى جرم أم بـأية سيرة ... أعنف فى تقريظهم وأؤنب
بأى كتاب أم بـأية سنة ... ترى حبهم عاراً علىّ وتحسب[٢]

وهو إنما يقصد بنى أمية ويقصد إلى إحراجهم فى خبث ، وكأنه يقول لهم : إننى إنما أمدح الرسول وآله فما بالكم تعنفوننى وتحبسوننى .

وقد استشهد بعض الدارسين بقول الجاحظ هذا على أن الكميت قد أسرف فعلا فى مديح الرسول وآله[٣] ، وواضح أن الجاحظ لا يراه أسرف بل لا يرى من يلومه على الأسراف منصفاً ، ويستطرد الجاحظ فى محاولته إرضاء العباسيين فيسوق هذين البيتين للكميت فى الرسول حيث يقول :

وبورك قبرانت فيه وبوركت ... به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برًّا وحزماً ونائـلا ... عشية واراه الصفيح المنصب

ويقول الجاحظ عن هذين البيتين إنه شعر يصلح فى جميع الناس[٤].

وقد يكون هذا حقًّا ، ولكن ليس من الحق أن نقيسه بهذين البيتين ، وكذلك ليس من الحق أن ننسى أن الكميت لا يقول شعره فى مديح شخص بعينه لذات المديح وإنما هو يقول شعراً جديداً فى نوعه لا يهتم فيه بالأشخاص ، وإنما يهتم بتقرير نظرية بعينها ، فلسنا نستطيع إذن أن نزعم أن الكميت قصّر فى مديح الرسول أو أجاد أو أنه قصر فى مديح آل البيت أو أجاد أيضاً ، فهو لم يكن شاعراً مداحاً ولم يرد أن يكون وإنما كان شاعراً مذهبيًّا ملتزماً بالتعبير عن

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ١٧٠ .
(٢) الهاشميات ص ٣٧
(٣) أدب الخوارج ص ١٣٤
(٤) الحيوان جـ ٥ ص ١٧٠

مذهبه ، فحسب ومن حقنا أن نحاسبه فى حدود هذه الغاية وبمقاييسها الخاصة .

وليس شك فى أنه نجح فى أن يجعل هاشمياته طرفة نفيسة من طرف العصر الأموى فالهاشميات أقدم نص يعرفنا بالمقالة الزيدية ، وقد كتبها الكميت شعراً فى العصر الأموى قبل أن تسجل نثراً فى العصر العباسى ومن أجل هذ كانت الهاشميات تعد لوناً أدبياً جديداً فى تاريخ الشعر العربى[١] .

والهاشميات بهذا ذات قيمة أدبية تاريخية ، إذ لم يعرف شاعر قبل الكميت اتخذ شعره لإثبات مقالة مذهبية .

وقد طغت قيمة شعره التاريخية والسياسية على قيمته الفنية إلى حد الجناية عليها فكثير من الدارسين يعتقدون أن قيمة شعره الأدبية أقل من قيمته السياسية والتاريخية[٢] .

والحقيقة أن القيمة الفنية لشعر الكميت لا تقل عن قيمته التاريخية ، وإنما علة هذا الاعتقاد أن الكميت بذهابه هذا المذهب الجديد فى التحول بالشعر إلى مجالات الفكر والعقل والبعد به عن منابعه القديمة التى ألفها الذوق العربى فى التعبير عن العواطف والتغنى بالمشاعر قد جعل الدارسين وبخاصة القدماء يقفون منه موقفاً مشوباً بالحذر والتشكك فقد كان الأصمعى يعيب عربيته ويقول عنه إنه جرمقانى من أهل الموصل ليس بحجة [٣].

ويروى أن الكميت والطرماح كانا يسألان العجاج أو رؤبة عن الغريب فيخبرهما ثم يراه فى شعرهما وقد وضع فى غير مواضعه ، وتعلل الرواية ذلك بأنهما قرويان يصفان مالم يرياه فيضعانه فى غير موضعه[٤] .

وقد شك بعض المستشرقين فى صحة هذه الرواية[٥] معتدا بالفارق الزمنى

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٥٥

(٢) دوجويه المجموعة العاشرة المجلد الخامس ص ١٥٧

(٣) أمالى القالى جـ ١ ص ٩٧ والوساطة ص ١٧ ، والمزهر جـ ٢ ص ٣٣٣ ، والاشتقاق ٢٦٥ ، والموشح ٢٩٢ .

(٤) الأغانى جـ ٢ ص ١٧ ، جـ ١٠ ص ١٥٦

(٥) كرنكو مقدمة ديوان الطرماح ص ٢٥ .

بين رؤبة الذى توفى سنة ١٤٥ هـ وبين الكميت الذى توفى سنة ١٢٦ هـ ، وقد انتهى إلى أن رؤبة لم يكن ليلحق بالكميت لصغر سنه فيعاصره ، ويأخذ هذا منه فى ذلك الوقت ، وهو ليس بدليل ، وعلى الرغم من ذلك فالرواية لا تصح لدينا لأن الكميت عرف بالشغف بالغريب وكان معلم لغة ، ولم يكن جرمقانيا من أهل الموصل كما زعم الأصمعى ولا قرويًّا كما تزعم رواية الأغانى وإنما كان حضريًّا بكل معنى الكلمة .

وشبيه بهذا ما يروى منسوباً إلى محمد بن سهيل راوية الكميت من أن الكميت أتى ذا الرمة عند قدومه الكوفة فأنشده قصيدته التى مطلعها :

هل أنت عن طلب الإيقاع منقلب أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

والتى يعارض فيها بائية ذى الرمة فقال ذو الرمة : ويحك إنك لتقول قولا مايقدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً عنه بل تقع قريباً منه فقال الكميت : أتدرى لم ذلك ؟ قال ذو الرمة لا فقال الكميت لأنك تصف شيئاً رأيته بعينك وأنا أصف شيئاً لى وليست المعاينة كالوصف [١] .

وهى رواية مهما كان حظها من التصديق فإنها لا تصدق على الهاشميات وإنما يقصد بها هذا الشعر الذى قاله الكميت تقليداً للقدماء وكأنما ليدلل لهم على قدرته على مجاراتهم وعلى براعته فى الإتيان بالغريب الذى شغف به ، ومن هذا القبيل وصفه للصحراء فى آخر هاشميته التى مطلعها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

وفيما عدا ذلك لم يكن الكميت ليحفل بمحاكاة الأقدمين فى هاشمياته فلم يفتتح تلك القصائد ببكاء الأطلال أو بالنسيب حتى قال له الفرزدق عندما أنشده هذه البائية : إنك قد طربت إلى شىء ما طرب إليه أحد قبلك فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه [٢] .

وهذا يثبت من ناحية ما ذهبنا إليه من خروج الكميت على الذوق المألوف

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠ (٢) الأغانى ٢ جـ ١٥ ص ١١٩

للشعر التقليدى عند القدماء ، ويثبت من ناحية أخرى أن القدماء لم يتجاوبوا مع هذا الخروج وإنما استهدف طعنهم والإزراء عليهم فارتفع بدفاعه عن نفسه على هذا النحو الذى رآيناه منه أمام ناقده ذى الرمة إلى جعل التقليد لذاته فى مرتبة الحذق الفنى[١] ومع ذلك فإنه لم يتقيد بالمثل التقليدية ونماذجها تقيد العبودية فأعطى النسيب وبكاء الأطلال تحولا سلبياً مبرزاً فى صورة التأكيد أن قلبه ليس ملكاً للغوانى وأنه لا يطمح إلى حب النساء وأن طربه لا يرجع إلى شوق أو غرام .

وعلى الرغم من ذلك فقد وسمه الأقدمون نتيجة لهذا بتمثيل القدماء بل بسرقتهم وتكلف الاحتذاء لهم . فهو عند ابن قتيبة متكلف شديد التكلف كثير السرقة[٢] وعند ابن جنى بطىء القريحة فى الشعر حتى إنه لايكاد يجد ما يتم به مصراعاً إلا بعد لأى وعندما استلهم تكملته من رجل يخاطب آخر فى حمام[٣]، وحتى الاقتباس من القرآن عابوه عليه حتى استطاع العالم الكوفى ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ هـ والذى اشتغل كثيراً بأشعاره أن يضع كتاباً كاملا فى سرقاته من القرآن وغير القرآن[٤].

ويكاد بعض الدارسين يتصور شعر الكميت نثراً منظوماً تبرز أثناء فقره وإقفاره تعبيرات رفيعة أخذها الكميت من لغة الشعراء وأقحمها هنا وهناك فى شعره فكأنها رقاع جديدة فى ثوب خلق فإذا ما نحيت سرقاته من شعره بدا شعره فقيراً رثًّا عاريا من كل جمال شعرى ، وأن التزاوج بين سطحيته المقفرة المنتقاة قد أسهم فى طبع أسلوبه بالقلق والاضطراب[٥] .

وفى رأينا أن ما يتصوره هؤلاء جميعاً من سرقة الكميت للأقدمين ليس إلا نتيجة طبيعية لما كان الكميت يأخذ به نفسه من التثقف بشعرهم وحفظه والنظر فيه والاشتغال بتعليمه .

---

(١) العربية ص ٤٠
(٢) الشعروالشعراء ج ٢ ص ٥٦٢
(٣) الخصائص ج ١ ص ٣٣١ – ٣٣٢
(٤) الفهرست ص ١٠٥
(٥) العربية ص ٤١

وقد عيب على الكميت تسامحه فى تعاطى اللغة الدارجة فخطأه الأصمعى فى قوله إذ يهجو يزيد بن خالد القسرى :

أبرق وأرعـــد يا يزيـــ ـد فما وعيدك لى بضائر

فقد استعمل صيغة الرباعى المهموز من برق ورعد مع أن الاستعمال الفصيح لا يعرف غير صيغة الثلاثى ، على الرغم من أن كثيراً من اللغويين يعدون صيغة الفعل الرباعى فى المعنى المجازى كصيغة الثلاثى فصاحة[١] .

وأيضاً فقد عابوا عليه إساءة فهم بعض التعبيرات البدوية لقلة بصره فمثلا يقول نار أبى حباحب[٢] مخطئاً فى فهم العبارة المشهور (نار الحباحب) ظنًّا منه أن لفظ حباحب ومعناه اللهب أو دويبة حمراء تشبه اللهب اسم رجل عربى بخيل .

ومهما كان من أمر تلك الهنات فلقد كان الكميت عالماً باللغة وغريبها ، معلماً لها مشغوفاً بها إلى حد أن رفض إملاء أشعاره على حماد الراوية لأنه كان يخشى لحنه[٣] وإنما كل ما هنالك أن رأى القدماء لم يكن فيه حسناً وتعليل ذلك ما سبق أن ذكرناه من أنه كان شاعراً ذا اتجاه مذهبى وأن اتجاهه كان له خصوم يمكن إرضاؤهم بالإزراء عليه . وكذلك فقد فتح الكميت لها شمياته فى الشعر العربى باباً لم يكن أحد قد فتحه من قبل خارجاً على ماألفه الذوق واعتاده فاستكره القدماء خروجه عليه وقد مرّ بنا رأى ابن قتيبة وابن شبرمة فى تصورهما ضعف ما عبرا عنه بمديح بنى هاشم عن مدائحه فى الأمويين ، وقد أسلفنا أن عنايته لم تكن مسددة إلى أن يمدح بنى هاشم فلم تكن تلك غايته وإنما كان همه أن يصور مذهبه الذى اعتنقه فى الدفاع عن حقوق بنى هاشم فى إطار النظرية الشيعية الزيدية ، وأيضاً مر بنا ما حسبه بعض المعاصرين إسفافاً وتكراراً مملا وهو فى حقيقة الأمر ليس إلا تقريراً على طريقة المتكلمين فى إثبات القضية التى يدافع عنها ، وليس ما دار فى شعره تكرراً لنعوت معينة

---

(١) العربية ص ٤٤

(٢) الخزانة جـ ٣ ص ٢١٣ ، وتاريخ العروس جـ ١ ص ٢٠٠

(٣) الموشح ص ١٩٥

يمدح بها بنى هاشم كما قدروا وإنما هى شرائط المذهب الزيدى فى الإمام الشيعى الحق يكررها محاولا تثبيت أصول مذهبه فى الأذهان كما قدمنا ، ولننظر فى هذا البيت الذى اتخذ مثلا لبيان مدى ما وصل إليه الإسفاف فى شعره[1] وهو قوله :

فدى لك موروثاً أبى وأبو أبى ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب

فهذا البيت فى مكانه من القصيدة التى يقرر فيها الكميت حق بنى هاشم ويناقش فيها تناقض الأمويين فى زعمهم أنهم إنما ورثوا الخلافة لقرابتهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم ينكرون بعد ذلك على بنى هاشم أن يقولوا بوراثتها عن النبى رأس أسرتهم محتجين فى مواجهتهم بذلك بأن النبى لا يورث .

وكان هم الكميت فى هذه المناظرة أن يكشف الغطاء عن هذا التناقض فبين أولا أن الأمويين إنما يحكمون بخاتم بنى هاشم وهو خاتم النبى الذى اغتصبوه وادعوا وراثته ، وهذه الوراثة التى أدعوها قد تكون صحيحة فى تسلسلها من الآباء إلى الأبناء ولكنها اغتصاب فى الأصل إذ أنها ابتزاز حق المورّث الأول وهو النبى صلى الله عليه وسلم الذى اغتصبوا حقه فدان لهم باغتصابه الشرق والغرب ، وصعب على بنى أمية أن يعترفوا باغتصابهم لهذا الحق وأيسر منه أن يدّعوا أنهم ورثة النبى ، وهنا يختطف الكميت هذا الادعاء فى لهجة ظافرة وكأنه اختطف شيئاً ثميناً من خصومه بعد أن حصرهم فى تهمة الاغتصاب واضطرهم إلى الهرب فإذا هم يقعون فى ادعاء الوراثة وهو شرك نسجه لهم الكميت بمنطقه ، فهذا الادعاء يعنى شيئاً هامًّا ، فماداموا وارثين فالنبى إذن موروث ، بدليل ادعاء بنى أمية أنفسهم أنهم ورثته .

فكيف إذن يردون بنى هاشم عن ميراثهم فيحرّمون عليهم ما أحلوه لأنفسهم زاعمين فى تناقض بيّن أن النبى لا يورث ثم يمضى الكميت فيقيم الدليل على أنه صلى الله عليه وسلم يورث ولولا ذلك لكان ميراثه حقًّا مشاعاً يشترك فيه جميع المسلمين ، ولم يكن مقصوراً على قريش دون غيرها ومادام الأمويون لا يرون لأحد

(١) أدب الخوارج ص ١٣٣ .

من المسلمين غيرهم حقًّا فى الخلافة فهى ليست حقًّا مشاعاً إذن ، وإنما حق مقصور على قريش فحسب ، وهم إنما يستمدون سندهم فى استحقاقهم الخلافة من أنهم من قريش التى لا يصلح العرب إلا بها ، ومادام الأمر ميراثاً خاصًّا هكذا فليس فى قريش من هم أقرب إلى النبى من آله بنى هاشم .

وهذا البيت الذى عدّ مثالا للإسفاف قد قام فى تقرير القضية التى ناظر الكميت فيها بنى أمية مقام المقدمة الصغرى من مقدمات المنطق انتزعها من خصومه وبنى عليها بمقدمة أخرى هى زعمهم أن النبى لا يورث ليخلص من ذلك إلى النتيجة المنطقية التى هدف إليها وهى أن بنى أمية متناقضون وليتخذ من تناقضهم دليلا على اغتصابهم حق غيرهم من الهاشميين .

فنحن إذن لانحتكم فى هذا البيت إلى مقاييس البلاغة أو النقد المألوفة فى جمال التعبير ودقة التصوير وإنما نحتكم فيه إلى مقياس آخر هو مدى ما قدمه هذا البيت إلى القصيدة فى موضعه من دلالة فكرية أسهمت فى استكمال الاحتجاج وتقرير الفكرة التى استهدفت القصيدة تقريرها

ولاشك فى أننا لو رفعنا هذا البيت من موضعه لاختل ما فى القصيدة من تسلسل منطقى ولاهتزت دلالاتها اهتزازاً تصبح معه الفكرة العامة للقصيدة مهوشة ولقصرت بعد ذلك عن بلوغ هدفها ومن ثم فهذا البيت يمكن أن يوصف بأنه بيت القصيد حقًّا .

ويبقى بعد ذلك معنى البيت ذاته فهو يفدى الرسول صلى الله عليه وسلم بأبيه وجده وبنفسه ويأتى بالكلمة التى هى هدفه من البيت فى صيغة اسم المفعول وفى موضع الحال بالذات مما يشعرنا بأنه يفديه فى هذه الحال التى أثبتها له ، وكأنها اعتراف انتزعه من أفواه خصومه ليدينهم به أو حبل برمه مناظروه فأحاط به رقابهم ، وقد طابت نفسه بعد هذا الانتصار على خصومه الذين دفعهم إلى أن يقرروا بأنفسهم ما أرادهم على تقريره وقد يكون تصور الإسفاف راجعاً إلى ما فى البيت من تكرار لبعض الكلمات مثل أبى وأبو أبى ونفسى ولكنه تكرار سائغ ودائر فى التعبير وهو خير من أن يقول الشاعر لو ساعده

الوزن مثلا فدى لك أبى وجدى فى تعبيره تفخيم لا يتوافر فى هذه الحال وفيه تأكيد وتحديد للجد بأنه أبو الأب وليس أبو الأم .

ويجب أن نلحظ أن نفسى الأولى فى تعبير الشاعر بمعنى الذات والأنية أو العمر بينما جاءت الثانية بمعنى الحالة الشعورية أو المزاج الانفعالى، فليس هناك تكرار فى المعنى بينما يبدو التكرار اللفظى غير منفر لتساوق واو الابتداء مع واوى العطف وتقابل التكرار فى نفسى فى الشطر الثانى مع التكرار فى أبى فى الشطر الأول .

وإنما وقفنا هذه الوقفة لنؤكد أننا بإزاء شعر من لون جديد لم يألف الذوق العربى صياغته الفكرية فعده إسفافاً وضعفاً وليس فيه إسفاف وليس فيه ضعف وإنما هو الإلف والعادة واستكراه الخروج عليهما . وعلى الرغم من ذلك فقد أحسن بعض القدماء الظن بالكميت فكان لهم فيه رأى حسن وهم قليلون ومنهم الفرزدق الذى عرض عليه الكميت هاشمياته قبل أن يذيعها ، ولم يكد يسمع أول قصيدة منها حتى قال له أذع يا ابن أخى ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى [١] .

وقد سئل الفرزدق عن هاشميات الكميت فقال إنه وجد آجرًّا وجصًّا فبنى ، وكذلك قال عنه معاذ الهرّاء إنه أشعر الأولين والآخرين [٢] .

وما خالطنا شك فى أن هؤلاء الذين أحسنوا الظن به قد فهموه كما لم نشك لحظة فى أن أولئك الذين أساءوا به الظن لم يفهموه أيضاً وإنما كان أول من لفت إليه ونبه إلى جدة ماذهب إليه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف [٣] .

ولسنا نذهب مذهب هؤلاء ولا مذهب أولئك وإنما نتابعه فيما ذهب إليه عن قناعة تامة بأن الهاشميات شىء جديد فى الشعر العربى لم يكن موجوداً من قبل ونظن ظنا أن ليس من حق النقاد إذن أن يحكموا فيه مقاييسهم فى نقد التقليدى من الشعر وقد تحول به الكميت فى هاشمياته إلى آفاق جديدة ففتح

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١

(٣) التطور والتجديد ص ٢٣٢ وما بعدها

للشيعة باب الاحتجاج وهو لهذا السبب لم يكن يفتن فيه ولم يكن يفوقه بألوان الخيال إذ حل محلها فى الاهتمام عنده ألوان الحجاج والاستدلال والجدال حتى عدّه بشار خطيباً وليس بشاعر .

فهاشميات الكميت إذن ليست مدائح لأهل البيت بالمعنى المتعارف عليه فى المديح وإنما هى حجاج لهم ودفاع عن حقهم وترويج لنظرية فرقة الزيدية وهو يستعين فى هذا بنوعين من الأدلة أحدهما النظر العقلى المحض القائم على التدليل المنطقى والآخر يستمده من القرآن الكريم وقواعد الإسلام وعلى الرغم من هذا فليس شعره خالياً من حرارة العاطفة ولامن صدق المشاعر لأنه لم يكن يصوغ حقائق جامدة لا أثر لها فى نفسه وإنما كان ينافح عن عقيدة يجد الراحة فى الدفاع عنها ويتقرب إلى الله بنصرتها عازفاً فى سبيل ذلك عن ملذات الدنيا ومتاعها .

وقد خرج فى تلك الهاشميات على الصياغة المألوفة وعلى الإطار التقليدى للقصيدة فبدأها بحب آل البيت فحسب وإن ذهب أحياناً إلى مجاراة النمط الجاهلى كنوع من التقليد المقصود لإظهار حذقه ومهارته وبصره باللغة وحفظه للقديم من الشعر مما عرّضه لطعن الطاعنين من القدماء والمحدثين وإتهامهم إياه بالتقليد والتكلف والسرقة ولاشك عندنا فى أنه شاعر مجيد ومطبوع ومتدفق وطويل النفس دقيق التعبير وليس أدل على ذلك من نجاحه فى القيام بالمهمة التى نذر نفسه لها وهى الاضطلاع بالترويج لمذهب الزيدية والدفاع عن مبادئه والانتصار له بأسلوب هو ثمرة لثقافاته ولثقافة العصر فجاءت هاشمياته منحة العقل العربى بحق فى هذا العصر وقام الكميت من ثم بمهمته على أتم وجه يطلب من شاعر عقائدى فى مثل ظروفه وملابساته .